

أعلام العرب



# يونس بن جبيب

تأليف

دكتور حسين نصار

وزارة الثقافة

دار

الكاتب

المركز

للطباعة

والنشر

مارس ١٩٦٨

وزارة الثقافة  
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

تتابع مشروعاتها الكبرى لنشر الأعمال الكاملة  
فتقدم

# الأعمال الكاملة لمحمد الدين الأفغاني

مع دراسة عن حياته وأثاره  
بقلم: محمد عمارة

كل ما كتب الأفغاني من رسائل ومقالات مع دراسة  
علمية لموقفه من القومية والعروبة والاشتراكية

يطلب من مكتبات القومية للتوزيع



أعلام العرب

٧٥

يونس بن حبيب

تأليف

دكتور حسين نصار



# بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

## مقدمة

لو كانت مدينة غير البصرة لاحتاجت الى تعريف ،  
ولو كان غير القرن الهجرى الثانى لاحتاج الى وصف .  
ولكن عندما يجتمع الأمران نستغنى عن كل حديث .  
فما أبرز صورة البصرة ، وأوضحها وأجملها ، فى ذهن  
كل متصل بالثقافة العربية ، فى القرون الأولى .

وكان علم العربية - الذى توافرت عوامل عدة فى  
القرن الأول جعلت العرب وغير العرب يتشبهون اليه ،  
ويتحدثون فى بعض مسائله ، ويخوضون فى بعض  
مشاكله - كان هذا العلم قد أخذ عوده يشتد ويتركو ،  
واغصانه تلتف وتورق ويؤتى ثمارا شهية .

فاحاط به - فى القرن الثانى - رجال امثال  
عبد الله بن ابي اسحاق ، وابى عمرو بن العلاء ، وعيسى  
ابن عمر ، وابى الخطاب الأخفش ، والخليل بن احمد ،  
ويونس بن حبيب ، وسيبويه ، فى البصرة ؛ وامثال  
الرؤاسى والكسائى ومعاذ الهراء فى الكوفة .

وكل هؤلاء الرجال مشهورون في (( علم العربية ))  
الذى صار بعد ، علوما متفرقة من لغة ، ونحو ،  
وصرف ، وبلاغة . ولكن تفاوت حظهم من الشهرة ،  
فتفاوت حظهم من عناية الناس بهم ، سواء من عاصريهم  
أو جاء بعدهم ، إلى يوم الناس هذا . فكان منهم من  
تمتع ولا زال بالأضواء كسيبويه . وكان من تمتع بها  
ثم خبت مع الزمن . ففسر علينا أن نتبين له صورة  
واضحة دقيقة ، أو اظلمت علينا أجزاء من صورته .  
والرجل الذى أكتب عنه يعطينا مثالا بارزا لما قلت .  
فقد كان من أعلام البصرة أبان ازدهار الثقافة بها ،  
بل كان أحد علمين شغلا الناس في علم النحو ، ثم جار  
عليه الإهمال ، فلم يجد من يكتب عنه ، ويقدره حق  
قدره .

وانى أمل أن أستطيع - في هذه الدراسة - أن أبرز  
له (( صورة حية )) ، أن فاتها كثير مما يتصل بحياته ،  
فعلوها أن ذلك لم يكن منها عن عجز أو إهمال أو نسيان  
أو غفلة ، بل كان اضطرارا لضياعه .

أما ما بقى من الرجل وعنه فقد تتبعته هذه  
الصورة ، ووضعته معا ، وأعادت النظر إليه ، حتى  
التقطت المتناسق والترابط ووضعت كلا مع رصيفه .  
ثم أخذت المنفرد ، والمتنافر ، وحاولت أن تستنبط  
الروابط بينه . وأخيرا كان النفى لما لا يلتئم مع  
الصورة ، وكان النفى معلا .

وكانت ثمرة ذلك كله (( هذه الصورة )) التى أضعتها  
بين يدي القارئ راجيا أن أكون قد أبرزت فيها معالم  
الرجل ، وحددتها ، وأكملت الساقط منها ، فيستطيع  
كل قارئ أن يتعرف عليه وأن يقدره .

## البَابُ الْأَوَّلُ

# الرجل

# الفصل الأول

## حياته .

اتفق أكثر من كتب عن الرجل الذي أسعى وراءه ، على كنيته واسمه . فهو عندهم أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب . ولم يخرج على هذا الاتفاق غير من كناه ابن النديم (١) « أبا سعيد » وروى عنه أن كنية يونس أبو محمد . ولم يتابعه أحد في هذه الكنية . وقد أخفى هذا الاتفاق وراءه اختلافا فيمن يسمى « حبيب » ، لأنه من الأسماء المشتركة التي تطلق على الرجال والنساء .

وصور ابن خلكان (٢) هذا الاختلاف فقال : « حبيب اسم أمه — ولهذا (٣) لا يصرفونه — فانه لا يعرف له أب . ويقال انه ولد ملاءنة (٤) . ويقال انه اسم أبيه ؛ فينصرف . والله أعلم .

(١) الفهرست ٤٢ .

(٢) وفيات الأعيان ٢ : ٤١٧ .

(٣) يريد للعلمية والتأنيث .

(٤) الملاءنة بين الزوجين : أن يقذف الرجل امرأته أو يرميها برجل أنه زنى بها ، فالإمام يلاعن بينهما . ويبدأ بالرجل ويقفه حتى يقول : « أشهد بالله أنها زنت بفلان ، واني لصادق فيما أرميها به » . فإذا قال ذلك أربع مرات ، قال في الخامسة : « وعلى لعنة الله أن كنت من الكاذبين فيما أرميها به » . ثم تقام المرأة فتقول أيضا أربع مرات : « أشهد بالله أنه من الكاذبين فيما رماني به من الزنا » . ثم تقول في الخامسة : « وعلى غضب الله أن كان من الصادقين » . فإذا فرغت من ذلك بانته منه ، ولم تحل له أبدا . وإن كانت حاملا فجاءت بولد ، فهو ولدها ولا يلحق بالزوج لأن السنة نفتته عنه . سمي ذلك كله لعانا وملاءنة لقبول الزوج : « على لعنة الله أن كنت من الكاذبين » وقول المرأة : « على غضب الله أن كان من الصادقين » .

وكذلك محمد بن حبيب النسابة أيضا . والى الراى الأول ذهب  
الفيروز ابادى (١) ، حين قال : « حبيب أمه ، ولم أقف على اسم  
أبيه » .

ولكن أبا أحمد العسكرى (٢) روى خبرا ، ان صح أبطل هذه  
الأقوال ، قال : « أنشدنا الهزاني قال : أنشدنا الرياشى قال :  
حدثنا ابن أبى رجاء قال : حدثنا أبو ثوبان : قال يونس : « أرسلنى  
أبى الى رؤية أسأله : كيف ينشد هذا البيت :

أبنى لبينى لستم بيسد      الا يد ليست لها عضد

أم يدا ؟ فقال : كيف شئت » . فالخبر يصرح أن « أباه » هو الذى  
أرسله الى رؤية مستفهما .

وبالرغم من ذلك فانى أشك فى هذا الخبر ، أو فى صورته  
هذه . فلم أجد أحدا ممن أرخ للفويين والنحويين ترجم لهذا  
« الأب » ، ولم أجد أحدا روى عنه أو أورد أخبارا أخرى عن  
يونس عنه . وأظن أن تحريفا وقع فى نص الخبر ، وأن صحته  
« أرسلنى أبو عمرو الى رؤية أسأله » ، فسقط « عمرو » فغير أحد  
النساخ « أبو » الى « أبى » .

وتتكرر الظاهرة نفسها فى أمر آخر . فقد أجمع المؤرخون على  
أن يونس مولى ، ثم اختلّفوا فىمن ارتبط به بالولاء . وكان  
ابن خلكان (٣) أيضا الذى أحسن تصوير الاختلاف فى قوله : « قال  
أبو عبد الله المرزبانى فى كتابه « المقتبس فى أخبار النحويين » :  
هو مولى ضبة ، وقيل : هو مولى بنى ليث بن بكر بن عبد مناة  
ابن كنانة ، وقيل : مولى بلال بن هرمى ، من بنى ضبيعة بن بجالة » .

---

(١) تحفة الأبيہ ١١٠ .

(٢) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ٣٦٣ .

(٣) وفيات الأعيان ٢ : ٤١٦ .

واقصر يا قوت (١) على ذكر القبيلتين ، فقال : « الضبي ،  
وقيل : الليثي ، بالولاء » . ورجح المبرد ولاءه الى ثانيتهما ، روى  
القفطي (٢) : « قال المبرد محمد بن يزيد : يونس بن حبيب  
أبو عبد الرحمن ، أراه مولى بنى ليث » . ومال أبو الحسن الخزاز  
الى ذلك استنباطا ، قال (٣) : « أراه مولى لبنى ليث .. لا أحقه ،  
ولكنه كان يكون مع هؤلاء ، فلا أدري هو مولى أم لا » .

ولكننى أعتقد أن الحكم فى هذا الأمر تلميذه أبو عبدة معمر  
ابن المثنى (٤) ، الذى أعلن ولاءه لبلال ، من بنى ضبيعة ، وهو الذى  
ذكره جرير فى قوله :

يا ضب ، على أن تصيب مواسمى

كوزا على حنق ورهط بلال

ونستبين من قصيدة جرير أن بلالا من بنى ضبة ، فولاء يونس  
له ولاء لبنى ضبة ، فلا خلاف بين نسبته بالولاء الى الرجل أو الى  
قبيلته .

ويتبادر الى الذهن من هذه الأقوال أن يونس فارسى الأصل .  
ولكن بروكلمن (٥) له رأى آخر ليس ببعيد ، قال : « زعم مصنف  
« مفاخر العجم » أنه أعجمى .. ولكنه يجوز أن يكون أيضا من  
النبط الآراميين » .

ولا خلاف بين المؤرخين أنه ولد فى جبل ، وهى بلدة صغيرة  
بالعراق على دجلة ، ذكر ابن خلكان (٦) أنها بين واسط وبغداد ،

---

(١) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٤ .

(٢) أنباء الرواة - المجلد الثانى ٣٦٤ .

(٣) الفهرست ٤٢ .

(٤) شرح النقاىص ١ : ٣٣٢ .

(٥) تاريخ الأدب العربى ٢ : ١٣٠ وانظر الفهرست ٤٢ .

(٦) وفيات الأعيان ٢ : ٤١٧ .

وذكر ياقوت (١) أنها بين واسط والنعمانية . ولا تناقض بين القولين ، غير أن قول ياقوت أدق . فآثار البلدة تقوم الآن في لواء الكوت ، بين مدينتي الكوت والحسينية ، مقابل أم البنى ، عند خط طول ٤٢° - ٥٤° شرقا وخط عرض ٣٣° - ٣٢° شمالا .

وكان يونس لا يحب أن ينسب إلى بلده ، أو يذكر بها . روى الأصمعي (٢) أنه لقيه رجل من ولد أبي عمير ، فأراد أن يسخر منه ، فقال : « يا أبا عبد الرحمن ، ما تقول في « جبل » : أينصرف ؟ » فسبه . والتفت العمري فلم ير أحدا يشهده عليه . فتركه حتى إذا كان من الغد ، وجلس يونس للناس ، أتاه العمري وأعاد السؤال : « يا أبا عبد الرحمن ، ما تقول في « جبل » : أينصرف ؟ » فرد عليه يونس : « الجواب ما قلت لك أمس » . ولعل سبب هذه الكراهية أن جبل تذكره بمولده غير الكريم ، أو بأصله غير العربي ، وخاصة أن كان من الأنباط ، الذين لم يحترمهم العرب .

### مولده

اختلف العلماء في السنة التي ولد يونس فيها اختلافا حكاه ابن خلكان (٣) في قوله : « مولده سنة تسعين . . وقيل : مولده سنة ثمانين » . واقتصر السيوطي (٤) على التاريخ الأول ، وياقوت (٥) على الثاني . ونقل ابن الجزري (٦) أن وفاته كانت في سنة ١٨٥ عن ٨٨ سنة ، ويعنى هذا أنه ولد في سنة سبع وتسعين أو ما قاربها .

---

(١) معجم البلدان ٢ : ٢٣ .

(٢) القفطي ٢ : ٣٦٤ . ابن خلكان ٢ : ٤١٧ .

(٣) وفيات الأعيان ٢ : ٤١٦ .

(٤) بغية الوعاة ٣٦٥ .

(٥) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٧ .

(٦) نهاية النهاية ٢ : ٤٠٦ .

ولكننا نعرف أنه أخذ عن حماد بن سلمة ، وأن محمد بن سلام  
الجمحي سألته : « أيما أسن : أنت أو حماد ؟ » فقال : « هو  
أسن منى ، ومنه تعلمت العربية » (١) . ولم أجده من ذكر مولد  
حماد ، ولكنهم أعلنوا أنه مات في سنة ١٦٥ أو ١٦٧ ، أو ١٦٩ بعد  
أن كبر وأهتر ، كما قال بعضهم ؛ وقارب الثمانين ، في قول بعضهم  
الآخر . واذن فمولد حماد بين سنتي ٨٥ و ٨٩ أو قريبا منهما .  
ويقطع هذا باستحالة أن يكون مولد يونس في سنة ٨٠ .

وذكر ابن خلكان (٢) أنه « كان يقول : أذكر موت الحجاج . .  
وقيل : أنه رأى الحجاج » . ولما كان الحجاج بن يوسف الثقفي  
— المعنى بهذا الكلام — قد مات في سنة ٩٥ ، كان القول بأن يونس  
ولد في سنة ٩٧ غير صحيح .

ولا يبقى عندنا غير سنة ٩٠ هـ ، وهي التي تصلح لأن تكون  
مولدا ليونس على كل الأقوال ، ويرجحها أيضا سؤال ابن سلام  
الذي يدل على أن الفرق بين عمري حماد ويونس كان من الضالة  
بحيث يشتبه على الناس ويحتاج إلى السؤال عنه .

## وفاته

طال العمر بيونس حتى ثقلت حركته . قيل أنه دخل المسجد  
يوما وهو يتهاذى بين اثنين من الكبر . فقال له رجل كان يتهم  
مودته : « بلغت ما أرى ، يا أبا عبد الرحمن ! » فقال له : « هو  
الذي ترى فلا بلغته » (٣) . وكثيرا ما كان ينشد قول الشاعر :

(١) نزهة الألباء ٢٦ . السيراني ٣٤ .

(٢) الوليات ٢ : ٤١٦ .

(٣) أبو الطيب ٢١ ابن خلكان ٢ : ٤١٧ . القفطي ٢ : ٣٦٢ . الحيوان  
للجاحظ ٥ : ٥٩١ ابن الجوزي ٢ : ٤٠٦ . نزهة الألباء ٣٤ . ميمون الأخبار  
٢ : ٣٢٠ . العمرون ٧٢ . أمالي المرتضى ١ : ٢٥٧ .

حنتنى حانيات الدهر حتى  
كأنى خاتل يدنو لصبيد

قريب الخطو يحسب من رآنى  
ـ. ولست مقيدا ـ أتى بقييد

اتفق المؤرخون على هذا ، ثم اختلفوا فى قدر عمره ، والسنة  
التي توفى فيها ، واقتصر اكثرهم على ايراد الأقوال المتنازعة دون  
ترجيح .

واقبل ما قالوا من أعوام عاشها يونس ٨٨ سنة ، واعتقد أن الذين  
أتوا بهذا الرقم اعتمدوا على قول لاسحاق بن ابراهيم الموصلى (١) ؛  
وعلى هذا القول نفسه اعتمد السيوطى حين قال انه قارب تسعين  
سنة (٢) . وحكى ابن خلكان فيما حكى عن المرزبانى انه عاش  
٩٨ عاما (٣) . وكان من الروايات التى أوردها ابن الجزرى وابن قاضى  
شعبة انه قارب المئة (٤) ، ولعلهما اعتمدا فى ذلك على قول المرزبانى  
السابق . وصرح اللغوى المعروف ثعلب (٥) انه جاوز المئة . وكان  
أطول عمر وهبوه للرجل مئة سنة واثنين (٦) .

وأغرب الروايات فى وفاته ما نقله بروكلمن (٧) عن يقول ان ذلك  
كان فى سنة ١٥٢ هـ . فالمعروف أن سيبويه مات قبل جمامة كان

- 
- (١) ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . القفطى ٢ : ٣٦٦ . ابن قاضى شعبة ٢٥٢ .  
الفهرست ٤٢ .  
(٢) البغية ٢ : ٣٦٥ .  
(٣) الوفيات ٢ : ٤١٦ ، ٤١٧ .  
(٤) الغاية ٢ : ٤٠٦ . الطبقات ٢٥٢ .  
(٥) نزهة الألباء ٣٤ . القفطى ٢ : ٣٦٥ ، ٣٦٦ ابن الجزرى ٢ : ٤٠٦ .  
ابن قاضى شعبة ٢٥٢ . الفهرست ٤٢ .  
(٦) ابن خلكان ٢ : ٤١٦ ياقوت ٢٠ : ٦٧ ابن العماد ١ : ٢٠١ .  
(٧) تاريخ الادب العربى ٢ : ١٣٠ .

قد أخذ عنهم كيونس وغيره (١) ، وأن سيبويه مات في سنة ١٦١ أو بعدها .

ثم تجمع سائر الأقوال على أن وفاة يونس كانت في العقد الثامن بعد المئة . وقد أجمل رجلان القول ولم يحدداه ، قال ابن العماد (٢) في وفيات سنة ١٨٢ هـ : « وفيها وقيل قبلها أو بعدها توفي يونس » . وقال ابن الجوزي (٣) : « توفي بعد اثنتين وثمانين ومئة » .

أما بقية الرجال فقد حددوا سنوات تقع بين ١٨٢ و ١٨٥ . فانفرد ابن خلكان وابن الجوزي (٤) بإيراد قول يصرح أن الوفاة وقعت سنة ١٨٥ ، وأولهما بإيراد قول عبد الباقي بن قانع الذي أعلن أن ذلك كان سنة ١٨٤ . وتتكاثر الأقوال حول السنتين الباقيتين ، فاتفق الزبيدي والجاحظ وياقوت وأبو الطيب والقفطي وابن قاضي شهاب والسيوطي على سنة ١٨٢ (٥) ، والسيرافي وثلعب وابن الأنباري والقفطي على سنة ١٨٣ (٦) .

### اخلاقه

إذا أردنا أن نتعرف على مذهب الرجل ودينه وجدنا أمامنا بعض الأقوال المتناثرة التي تلقى عليه بعض الأضواء .

- 
- (١) السيرافي ٣٧ .
  - (٢) شذرات الذهب ١ : ٣٠١ .
  - (٣) غاية النهاية ٢ : ٤٠٦ .
  - (٤) وفيات الأعيان ٢ : ٤١٧ . غاية النهاية ٢ : ٤٠٦ .
  - (٥) مراتب النحويين ٢١ . ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . السيوطي ٢ : ٣٦٥ . القفطي ٣ : ٣٦٥ ابن قاضي شهاب ٢٥٢ . بروكلمن ٢ : ١٣٠ . الحيوان ٥ : ٥٩١ . معجم الأدباء ٢٠ : ٦٧ .
  - (٦) السيرافي ٣٧ ابن الأنباري ٣٤ ابن خلكان ٢ : ٤١٧ . القفطي ٢ : ٣٦٦ .
- الفهرست ٤٢ .

قال إبراهيم الحربي (١) : كان أهل العربية كلهم أصحاب أهواء ، إلا أربعة فانهم كانوا أصحاب سنة : أبو عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، ويونس بن حبيب البصري ، والأصمعي .

ولما كان الثلاثة الآخرون يتمتعون عند الدارسين بأقصى درجات الاحترام ، ويشغلون أسمى مكانة ، دل هذا على ما كان يتمتع به يونس من احترام وتبجيل .

ويؤيدنا في هذا قولان آخران ينسبان إلى اثنين من أشهر العلماء والكتاب . قال أبو حاتم السجستاني (٢) : « فاذا فسرت حروف القرآن المختلف فيها ، أو حكيت عن العرب شيئاً ، فأنما أحكيه عن الثقات عنهم مثل أبي زيد والأصمعي وأبي عبيدة ويونس وثقات من فصحاء الأعراب وحملة العلم » . ويمنحنا هذا القول مكانة يونس عند أتباع مدرسة البصرة في اللغة خاصة .

أما القول الثاني فيمنحنا مكانة يونس عند الأدباء عامة ، وفي مروياته . قال الجاحظ (٣) : « ومن أراد الأخبار فليأخذها عن مثل قتادة ( بن دعامة السدوسي ) ، وأبي عمرو بن العلاء ، وابن جعدبة ( يزيد بن عياض الليثي ) ، ويونس بن حبيب ، وأبي عبيدة ، ومسلمة ابن محارب . . فان هؤلاء وأشباههم مأمونون ، وأصحاب توق وخوف من الزوائد ، وصون لما في أيديهم ، واشفاق على عدالتهم » .

وكان يونس حريصاً ألا يخوض في المسائل التي فرقت بين المسلمين . قيل انه جرى ذكر القدر في أحد مجالسه ، فسئل عن رأيه فيه ، فقال : « لا فكر لي فيه » (٤) .

(١) ابن الأنباري ١٧ ، ٨٤ . ابن حجر تهذيب التهذيب ٣ : ١٦٤ .

(٢) أبو الطيب ٩٠ الزهر ٢ : ٤١٠ .

(٣) البغال ( رسائل الجاحظ ) ٢ : ٢٦٦ - ٨ .

(٤) القفطي ٢ : ٣٦٥ .

ولكن حرصه هذا لم يمنعه من ابداء رأيه في بعض المسائل ، التي كان الاختلاف فيها قليل الخطر . قال محمد بن سلام (١) : « سمعني يونس يوما أراد التميمية في خالد ( بن الوليد ، في قتله مالك بن نويرة في حروب الردة ) وأعذره . فقال : « يا أبا عبد الله ، أما سمعت بساقى أم تميم ؟ » - يعني زوجة مالك - « أو صارت أم تميم الى خالد بنكاح أو سباء ؟ وما عابه عليه عمر بن الخطاب قال : قتلت امرأ مسلمة ووثبت على امراته بعقرباء يوم . . . بنى حنيقة ! » .

بل بلغ من جراته أن عاب بعض الأنبياء في تصرفات لهم . ذكر عمر بن شبة عن خلاد بن يزيد عن يونس قال (٢) : « ثلاثة والله أشتى أن أمكن من مناظرتهم يوم القيامة : آدم عليه السلام ، فأقول له : قد مكنتك الله من الجنة وحرم عليك شجرة ، فقصدت لها ، حتى ألقيتنا في هذا المكروه ! ويوسف عليه السلام أقول له : كنت بمصر وأبوك عليه السلام بكنعان ، بينك وبينه عشر مراحل ، يبكي عليك حتى ابيضت عيناه : لم لم ترسل اليه انى في عافية وتريحه مما كان فيه من الحزن ؟ وطلحة والزبير أقول لهما : على بن أبى طالب عليه السلام بايعتماه بالمدينة وخلعتماه بالعراق ، لم ! أى شيء أحدث ؟ » . وكان يونس رضى الخلق ، يثنى على أساتذته وزملائه وتلاميذه ، ويعترف لكل منهم بفضلهم ، ويبادر الى تصديق أقوالهم ، ويورد من الأقيسة ما يدعمها .

---

(١) طبقات فحول الشعراء ١٧٣ .

(٢) السيرافى ٢٩ . ابن قاضى شعبة ٢٥٢ . نزهة الألباء ٣٣ .

يتجلى لنا ذلك في موقفه من أستاذه عيسى بن عمر . روى  
أبْن السَّيِّد البَطْلِيُّوسِي (١) : « قال سيبويه : وزعم عيسى بن عمر أن  
ناساً من العرب يقولون : اذن أفعِلْ ذلك ، في الجواب ، بالرفع .  
قال سيبويه : فأخبرت بذلك يونس فقال : « لا يبعد ذا ، ولم يكن  
لمروى إلا ما سمع ، جعلوها بمنزلة هل وبل . أراد أنهم  
لم يعملوها » .

وأشاد بذلك زميله ، ومنافسه على رئاسة علم النحو في  
البصرة ، أحسن الأشادة . قال أبان بن رزين البصري (٢) : زعم  
يونس النحوي أن الخليل بن أحمد كان يستدل بالعربية على سائر  
اللغات ذكاء منه وفطنة .

وعندما برز واحد من تلاميذه في العلم الذي منحه حياته  
لم يمتنع عن إيفائه حقه من التقريظ والتشجيع ، وأشاع ذلك بين  
بقية تلاميذه . قال الفراء (٣) : « دخلت البصرة فلقيت يونس  
وأصحابه ، فسمعتهم يذكرون سيبويه بالحفظ والدراية وحسن  
الفطنة » .

واتجه تلميذ آخر له اتجاهها يخالف اتجاه يونس بعض الشيء ،  
فلقى فيه الشيء الكثير من النجاح والشهرة . فكان الأستاذ من  
المفتبطين بما لقي التلميذ ، والمترفين له باتجاهه واجادته فيه ،  
حتى لو كشف ذلك عن تقصير منه فيه . روى ابن عبد ربه عن  
مروان بن أبي حفصة قال (٤) : « لما مدحت المهدي بشعرى  
الذي أوله :

طرفتكَ زائرة فحى خيالها      بيضاء تخط بالحياء دلالها

---

(١) الحل ٤١ ظ .

(٢) ابن المعتز : طبقاته ٩٧ .

(٣) السيوطي : الزهر ١ : ٢٠٢ .

(٤) العقد الفريد ٥ : ٣٠٦ ولكننا يجب أن نتوقف في هذا الخبر ، لأنه

روى أيضاً بصورة تخالف الاستدلال به هنا .

أردت أن أعرضه على بصراء البصرة . فدخلت المسجد الجامع ، فتصفحت الحلق فلم أر حلقة أعظم من حلقة يونس النحوى . فجلست إليه فقلت له : انى مدحت المهدي بشعر ، وأردت ألا أرفعه حتى أعرضه على بصرائكم ، وانى تصفحت الحلق فلم أر حلقة أحفل من حلقتك ، فان رأيت أن تسمعه منى فافعل . فقال : يا بن أخى ، ان ها هنا خلفا ( الأحمر ) ، ولا يمكن أحدا أن يسمع شعرا حتى يحضر ، فاذا حضر فأسمعه . . . » .

بل كان يقر بالاجادة لنظرائه من العلماء بالعربية ، ولو كانوا من غير البصرة ، اذا ما أبدوا الراى المعجب . ولو خالف ما عنده . إقال محمد بن سلام (١) : « قدم الكسائى البصرة مع الرشيد . فجلس الى يونس فى حلقة . فألقى عليه بعض من حضر المجلس بيتا للفرزدق :

غداة أحلت لابن أصرم طعنة  
حصين عبيطات السدائف ، والخمر

فأنشده هكذا . فقبل للكسائى : « على أى شيء رفعت الخمر ؟ » فقال : « أضمرت فعلا . كأنه قال : وحلت له الخمر » . فقال يونس : « ما أحسن والله ما وجهته ، غير أنى سمعت الفرزدق ينشد :

غداة أحلت لابن أصرم طعنة  
حصين عبيطات السدائف ، والخمر

جعل الفاعل مفعولا ، كما قال الحطيئة ا  
فلما فشيت الهون والعر ممسك  
على رقبته ، ما أمسك الحبل حافره

(١) القفطى : ٢ : ٣٦٧ . شرح اعراب ابيات الجمل ١٠٢ ظ . وانظر البغية

والقصيدة على الرفع ، جعل الفاعل مفعولا . فقال الكسائي :  
« هذا على هذا وجه » .

ولكن بعض الشبان في حلقة يونس لم يعجب بمسلكه (١) ، وأراد  
أن يخرج الرجل ويتنقصه ، فأخذ يوجه اليه السؤال بعد السؤال .  
ولكن يونس لم يرض عن هذا الأمر ، وقال غاضبا : « تؤذون جليسننا  
ومؤدب أمير المؤمنين » .

ويذكرنا هذا بموقف مشابه كان ليونس نفسه في شبابه ، زوى  
أبو عبيدة عن يونس قال (٢) : « كنت عند أبي عمرو فجاءه شبيل  
ابن عزرة الضبعي . فقام اليه وألقى له لبد بغلته . فجلس عليه  
ثم أقبل عليه يحدثه . فقال شبيل : « يا أبا عمرو ، سألت رؤبتكم  
عن اشتقاق اسمه فما عرفه ! » - يعني رؤبة . فلم أملك نفسي  
عند ذكره فرجعت اليه ثم قلت له : « لعلك تظن أن معد بن عدنان  
أفصح منه ومن أبيه ! أفتعرف أنت ما الروبة ، والروبة ، والروبة ،  
والروبة ، والروبة ؟ فانا غلام رؤبة » . فلم يحر جوابا وقام مغضبا .  
فأقبل على أبو عمرو وقال : هذا رجل شريف يقصد مجالسنا ويقضي  
حقوقنا وقد أسأت فيما فعلت مما واجهته به ! » فقلت له :  
« لم أملك نفسي عند ذكر رؤبة » فقال أبو عمرو : « أو سلطت على  
تقويم الناس ؟ » .

فيونس قد أفاد من أبي عمرو أدبا تحلى به في شيخوخته .  
ولكن هذا الأدب لم يمنعه من معارضة الكسائي ، وتوجيهه إلى  
المسلك العلمي الحق في بعض الأحيان . فقد سأل البشارداني - من

---

(١) السيرافي ٢٧ . مجالس العلماء ٢٤٤ .

(٢) فسر يونس لتلاميذه الرويات فقال : الروبة : خمرة اللبن . والروبة  
قطعة من الليل . ويقال : لا يقوم بروبة أهله : أي بما اسندوا اليه من أمورهم  
والروبة : جمام ماء الفحل . والرؤبة - مهموزا : القطعة التي يشعب بها الاناء .  
والنظر القفطي ٢ : ٣٦٤ . الزهر ١ : ٣٧٠ المراتب ٢٢ . مجالس العلماء ٣٠٣ .  
سقط اللالي ١٩٤ .

تلاميذ يونس - الكسائي (١) : « كيف تصغر حسينا ؟ » فقال :  
« حسنين » فقال مستنكرا : « أتصغر مصغرا ؟ هذا ما لا نهاية له .  
فوثب رجل كان مع الكسائي على الشراذاني وقال : « أقول هذا  
لأؤدب أمير المؤمنين ؟ » فكان رد يونس الحاسم : « مغالبة العلم  
بالحجة لا بالسلطة » .

ولعل هذا الأدب الذي تحلى به يونس هو الذي جعله يعتمد على  
الكناية حين يريد أن يذكر بعض الصفات الكريهة في بعض من يعرف .  
ولذلك قال عن خلف الأحمر حين اضطر إلى الحديث عنه (٢) :  
« يضرب ما بين الكركي إلى العندليب » .

ولم أعثر على ما يعيبه غير الخبر الذي يذكر أنه السبب في  
مقتل بشار بن برد . روى أبو الفرج في أحد أخباره (٣) أن بشارا  
هجا الخليفة المهدي ، والوزير يعقوب بن داود ، فأفحش في الهجاء .  
ثم انشد هجاءه في حلقة يونس ، فسعى به إلى الوزير . فغضب  
ونقل الهجاء إلى الخليفة فأمر بقتله فقتل .

ولكن الخبر - بصورته السابقة - غير صحيح . فالحق (٤)  
أن غزل الرجل الماجن ، واشتهاره بالزندقة ، ورتائه أصدقاءه من  
الزندقة الذين قتلهم المهدي ، وأخيرا هجاءه للخليفة ، كل ذلك  
أغضب الخليفة عليه . وعندما قدم المهدي إلى البصرة في سنة ١٦٨  
سأل عنه ، فشهد أمامه شهود موثقون بأنه زنديق ، فأمر بضربه  
حتى الموت . وكان يونس أحد هؤلاء الشهود ، قال عند سؤاله (٥) :  
« أن بشارا زنديق وقامت عليه البيعة عندي بذلك » .

(١) العسكري : شرح ١٢٦ .

(٢) الجاحظ : الحيوان ٥ : ١٤٩ ، ٦ : ٤٠٩ .

(٣) الأغانى ٣ : ٢٤٣ .

(٤) شوقي ضيف : تاريخ الأدب العربي - العصر العباسي الأول ٢٠٦ .

(٥) الأغانى ٣ : ٢٤٦ .

وقد فرح يونس بمقتل بشار . قال سالم بن علي (١) : « كنا عند يونس فنعي بشارا اليانا ناع ، فأنكر يونس ذلك وقال : لم يمتم . فقال الرجل : أنا رأيت قبره . فقال : أنت رأيته ؟ قال : نعم والا فعلى وعلى ؛ وحلف له حتى رضى . فقال يونس : لليدين وللنم » .

ولكن هذا الفرع لا يعيب الرجل ، لأنه كان أحد أبناء البصرة ، التي احتفلت بهذا الموت احتفالا خاصا . قال عمر بن شبة (٢) : أمر المهدي عبد الجبار صاحب الزنادقة فضرب بشارا ، فما بقي بالبصرة شريف الا بعث اليه بالفرش والكسوة والهدايا . وقال أبو الفرع (٣) : لما مات بشار ونعي الى أهل البصرة تباشر عامتهم وهنا بعضهم بعضا وحمدوا الله وتصدقوا لما كانوا منوا به من لسانه .

واذن فيونس برىء من تهمة الوشاية ببشار ، ووصمة الشماعة بمقتله اذ لم ينفرد بذلك دون بقية كبار رجال البصرة .

وآخر ما وجدت من طباع يونس وأخلاقه أنه كان يشرب المطبوخ (٤) .

---

(١) الأغاني ٣ : ٢٤٧ .

(٢) الأغاني ٣ : ٢٤٧ .

(٣) الأغاني ٣ : ٢٤٨ .

(٤) القفطي ٢ : ٣٦٥ .

## الفصل الثاني

### طالب العلم

كان يونس بن حبيب يرفع قدر العلم حتى قال (١) : « علمك من روحك ومالك من بدنك » .

وكان يرى أن علم العربية خاصة أمر ضروري لكل رجل ، لابد أن يحسنه علما وعملا ، أو نظرا وتطبيقا ، حتى يتحلى بالفصاحة والبيان . قال (٢) : « ليس لعبي مروءة ، ولا لمنقوص البيان بهاء ، ولو بلغ يافوخه ألعان السماء » .

لا عجب إذن أن يشتغل رجل هذه آراؤه بالعلم عامة ، والعربية خاصة ، بل أن يقبل عليه حتى ينسى كل شيء غيره . فكان أول ما ينسى طعامه وشرابه ، قال (٣) : « ما أكلت في شتاء شيئا قط إلا وقد برد ، ولا أكلت في صيف شيئا إلا وقد سخن » .

وكان مما نسي أو تشاغل عنه أسرته حتى اعتقد بعض الناس أنه لا أسرة له . قال اسحاق بن إبراهيم الموصلي (٤) : « عاش يونس ثمانيا وثمانين سنة ، لم يتزوج ولم يتسر ، ولم يكن له همة إلا طلب العلم ومحادثة الرجال » . ولكن هذا القول غير صحيح ، لاتنا نعرف واحدا من أبناء يونس كان يسمى حرميا ، روى القراءة عنه .

(١) عيون الأخبار ٢ : ١٢١ .

(٢) عيون الأخبار ٢ : ١٧٥ . البيان والتبيين ١ : ٧٧ . ربيع الأبرار ٤ : ٩٩ .

(٣) الجاحظ : الحيوان ٣ : ٤٦٩ .

(٤) القفطي ٢ : ٣٦٦ . ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . البغية ٢ : ٣٦٥ .  
الفهرست ٤٢ .

## شيوخه

ولا يذكر المؤرخون ليونس أين طلب العلم أولا ، ولا متى ، ولا في أى سن . فلا ندري هل كان ذلك في بلدته الأولى أو كان في البصرة ، بل لا ندري متى انتقل الى البصرة . ولكن الذى نقطع به أنه اخلص حياته للعلم ، وأنه طلبه في كل مكان سمع أنه فيه ، ومن كل مجال . ونستطيع أن نلمح في دراسته لونين ، كانا شائعين في عصره : دراسة منتظمة ، وأخرى غير منتظمة . أما المنتظمة فكانت من علمى القسراة والعربية . فتلقى العلم الأول عن أبان بن يزيد العطار ، والحسن بن عمران الشحام ، وأبى عمرو بن العلاء (١) . وتلقى الثانى عن حماد بن سلمة وأبى عمرو أيضا (٢) .

وليس فيما بقى من أقوال يونس وأخباره صدى لهؤلاء الشيوخ ، سوى أبى عمرو . فالأقوال التى نقلها عن حماد نادرة بل تكاد تكون معدومة ، بالرغم أنه كان يفضل (٣) . ومثال ما رواه عنه ما جاء في نزهة الألباء (٤) : « حكى أبو الحسن الأخفش ، عن يونس بن حبيب : أن حمادا حدثه أن ناسا من العرب يقولون في النسب الى شية : شيوى ، والوجه فيه غير ذلك ، وهؤلاء كأنهم قلبوا موضع الفاء فوضعوه في موضع اللام » .

أما أبو عمرو بن العلاء فكان يونس يرفعه مكانا عليا ، ويثق فيه

- 
- (١) الفهرست ٢٨ . النزهة ٢٦ . الغاية ٢ : ٤٠٦ . الوفيات ٢ : ٤١٦ . معجم الأدباء ٢٠ : ٦٤ . انباء الرواة ٢ : ٣٦٣ . ابن قاضى شعبة ٢٥٢ .  
(٢) ابن سلام ١٤ . المراتب ٢٢ . السيراى ٢٧ ، ٣٤ . مجالس العلماء ٢٤٣ . الأزهري ٣٩ . ابن النديم ٤٢ . ابن الجوزى ٢ : ٤٠٦ . ابن العماد ١ : ٣٠١ . المهر ٢ : ٣٩٩ . البغية ٢ : ٣٦٥ . الشريشى ٢ : ٤٠٢ .  
(٣) النزهة ٢٧ . قال ابن الأنبارى : « حكى أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب عن محمد بن سلام في ترتيب النحويين من البصريين فقال : وحماد — يعنى حماد بن سلمة — كان يونس بن حبيب يفضل » . وقد أدى ذكره حماد دون تحلية الى خطأ كثيرين اذ ظنوه حماد بن الزبرقان . انظر السيراى ٣٤ .  
(٤) ٢٧ .

كل الثقة ، ويقول (١) : « لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كله في شيء واحد كان ينبغي لقول أبي عمرو بن العلاء في العربية أن يؤخذ كله ، ولكن ليس أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك » . فلا عجب أن تكون أكثر رواية يونس عنه ، فلا تحتاج الى مثال للتدليل .

وكان في عصر حماد وأبي عمرو أو في عصر سابق عليهما قليلا : عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي . فعاصره يونس ورآه . ولكن ابن النديم (٢) حكى عن يونس أنه قال : « لم أسمع من عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي ، ولكني سألته هل يعلم أحدا يقول : الصويق ، مكان : السويق » فقال : « هي لغة عمرو بن تميم » .

واخال أن ابن النديم مخطيء في انكاره سماع يونس من عبد الله ، وأنه لم يصب في فهم الخبر . فحقيقته التي أوردها ابن سلام (٣) قلت ليونس : « هل سمعت من ابن أبي اسحاق شيئا ؟ » قال : « قلت له : هل يقول أحد : الصويق . . » ولم يرد بذلك حصر سماعه في هذا الابدال ، بل أراد اثبات السماع .

والدليل على ذلك أن يونس كان يبجل عبد الله ويرى أنه أعظم علماء عهده في النحو ، وأنفذهم ذكاء . قال محمد بن سلام (٤) : « سمعت أبي يسأل يونس عن ابن أبي اسحاق وعلمه ، فقال : « هو والنحو سواء » . أي هو الغاية . قال : « فأين علمه من علم الناس اليوم ؟ » قال : « لو كان في الناس اليوم من لا يعلم إلا علمه يومئذ لضحك به ، ولو كان فيهم أحد له ذهنه ونفاذه ، ونظر نظرهم ، كان أعلم الناس » . فغير معقول أن يرى فيه هذا الرأي وأن يعاصره أكثر من ربع قرن ثم لا يسمع منه .

---

(١) ابن سلام ١٥ . الأزهري ٤٠ النزهة ١٥ .

(٢) الفهرست ٤٢ .

(٣) طبقات فحول الشعراء ١٥ .

(٤) نفس المراجع ١٤ . السيرافي ٢٠ . النزهة ١١ . الزبيدي ٢٦ .

والحق أن يونس سمع من ابن أبي اسحاق وروى عنه . قال أبو عبيدة عن يونس قال (١) : « مضيت إلى عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي فقلت له : « كيف تقرأ ( فاذا برق البصر ؟ ) » فقال : فاذا برق البصر ، وفتح الراء . فقامت من عنده إلى أبي عمرو فقلت : « من أين بك ؟ » قلت : « من عند عبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي ، سألته : كيف تقرأ ( فاذا برق البصر ) فقال : « فاذا برق البصر ، بفتح الراء » . فقال أبو عمرو : « أين يراد به ، يقال : برقت السماء ، وبرق النبات ، وبرقت الأرض ، فأما البصر فبرق ؛ كذا سمعنا » .

وقال أبو عبيدة أيضا (٢) : « زعم يونس عن ابن أبي اسحاق قال : أصل الكلام بناؤه على فعل ، ثم يبنى آخره على عدد من له الفعل من المؤنث والمذكر ، من الواحد والاثني والجميع ، كقولك : فعلت وفعلنا وفعلن وفعللا وفعلوا . ويزاد في أوله ما ليس من بنائه ، فيزيدون الألف كقولك : أعطيت ، إنما أصلها عطوت ، ثم يقولون : معطى ، فيزيدون الميم بدلا من الألف . . » فلا شك عندي في أخذ يونس عن ابن أبي اسحاق سمعا في بعض الأحيان ، ورواية عن أبي عمرو في بعضها الآخر ، فيما أظن (٣) .

ولم يعلن أحد من الذين أرخوا ليونس ممن رجعت إليهم أنه أخذ عن محمد بن مسلم الزهري . ولكنني عثرت على رواية له عنه (٤) ، تعرض فيها لتفسير آية « وما علمناه الشعر » . وغير بعيد أن يأخذ يونس عن الزهري ، فقد مات هذا في سنة ١٢٣ أو بعدها ، وعرف بالحديث والأخبار . وكان ليونس شغف بالأخبار العربية ، ومشاركة

(١) مجالس العلماء ٢٤٧ .

(٢) مجاز القرآن ١ : ٣٧٦ . وانظر القفطي ٢ : ٣٦٥ .

(٣) انظر روايتهما ما نشب من خلاف بين ابن أبي اسحاق والفرزدق في

الموشع للمزباني ١٠١ ، وطبقات ابن سلام ١٩٠ .

(٤) السيراني ٥٦ .

في الحديث ، حتى ذكره ابن أبي حاتم فقال (١) : هو صاحب غريب .  
وأضاف ثعلب شيخا آخر ليونس بن خبيب . قال في أماليه (٢) :  
« كان يونس يقول : « حدثني الثقة عن العرب » . ف قيل له : « من  
الثقة ؟ » قال : « أبو زيد » . قيل له : « فلم لا تسميه ؟ » قال :  
« هو حي بعد فأنا لا أسميه » . لكن هذا القول غير صحيح أيضا .  
فالمعروف أن الذي كان يروي عن أبي زيد الأنصاري ، ويلقبه الثقة ،  
ويكنى بذلك عنه في روايته هو سيبويه . أما يونس فلم يفعل ذلك ،  
بل كان شيخا لأبي زيد .

وزاد بروكلمن (٣) شيخا أخيرا هو أبو الخطاب عبد الحميد  
ابن عبد المجيد الأخفش الأكبر . ولكنني لم أعر على المصدر الذي  
استقى منه هذا القول ، فأنا متوقف في صحته .

### الأعراب

واللون الثاني من الدراسة ، وهو الذي وصفته بالدراسة غير  
المنتظمة ، أعني به الدراسة التي حصلها عن غير شيخ أو عالم  
معروف . وأهم ما يندرج تحت هذا اللون من الدراسة في ذلك الزمن  
الرحلة الى البادية ، والعيش مع الأعراب الفصحاء في مواطنهم ،  
والحوار معهم ، حتى قيل (٤) أن الكسائي لما ارتحل الى البصرة  
وجلس في حلقة الخليل بن أحمد ليأخذ عنه ، استنكر عليه أحدهم  
هذا الفعل وقال له : « تركت أسدا وتميما وعندهما الفصاحة  
وجئت الى البصرة ! » فسأل الخليل : « من أين علمك هذا ؟ »  
فقال : « من بوادي الحجاز ونجد وتهامة » .

وتدور عبارة واحدة عند كل من كتب عن يونس تدل على هذه

(١) طبقات ابن قاضي شهبة ٢٥٢ .

(٢) الزهر ١ : ١٤٣ ، ١٥٢ الاقتراح ٢٨ .

(٣) تاريخ الأدب العربي ٢ : ١٣٠ .

(٤) النزهة ٤٣ .

الدراسة ، تقول (١) : « وقد سمع من العرب كما سمع من قبله » .  
ولم أجد نصا يصرح بأن يونس « سمع من العرب » في « بواديهم »  
بالرحلة اليهم ، وان كنت أرجح أنه قد فعل ، بالرغم من وجود نص  
يدل على ان « العرب » أنفسهم كانوا يقدون على يونس في البصرة .  
ولا يقل هذا النص دورانا عند الكاتبيين عن يونس عن النص السابق؛  
ويقول (٢) : « وكانت حلقة بالبصرة ينتابها أهل العلم ، وطلاب  
الأدب ، وفصحاء الأعراب والبادية » .

ولا يقف الأمر عند هذا النص ، بل تتعدد الأخبار عن هذه  
الحاقة ، ومن طرقها من الأعراب للسؤال خاصة . قال أبو زيد (٣) :  
« وقف علينا أعرابي في حلقة يونس النحوى فقال : « الحمد لله  
كما هو أهله ، وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه ، خرجنا من المدينة  
— مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم — ثلاثين رجلا ممن  
أخرجته الحاجة ، وحمل على المكروه ، لا يمرضون مريضهم ،  
ولا يدفنون ميتهم ، ولا ينتقلون من منزل الى منزل وان كرهوه ،  
والله يا قوم لقد جعت حتى أكلت النوى المحرق ، ولقد مشيت حتى  
انتعلت الدم ، وحتى خرج من قدمي بخص ولحم كثير ، أفلا رجل  
يرحم ابن سبيل ، وفل طريق ، ونضو سفر ، فانه لا قليل من الأجر ،  
ولا غنى عن ثواب الله عز وجل ، ولا عمل بعد الموت . وهو الذى يقول  
جل ثناؤه ( من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له )  
ملى وفى ماجد واجد جواد ، لا يستقرض من عوز ، ولكنه يبسلو  
الأخيار » . قال : فبلغنى أنه لم يبرح حتى أخذ ستين دينارا » .

ويذكرنا هذا الخبر بالمقامات ، التى كانت تدور حول فن السؤال  
والكدية ، ويعتمد بطلها على فصاحته فى اغراء الناس على التصديق

---

(١) السيرافى ٢٧ ، النزهة ٣١ ابن خلكان ٢ : ٤١٦ ، القفطى ٢ : ٣٦٥ ،  
ياقوت ٢٠ : ٦٤ ، البغية ٢ : ٣٦٥ . ابن قاضى شبهة ٢٥٢ .

(٢) نفس الموضع .

(٣) الكامل ١ : ٣٠٥ .

عليه . ويجعلنا هذا نعيد النظر في كون البذور الأولى لفن المقامات وجدت عند أبي بكر بن دريد كما ظن الدكتور زكى مبارك (١) . ونبعد في الزمن ونرى بذورا أقدم فرست في حلقة يونس النحوى ، وعلى أيدي جماعة من رواد حلقاته الدائمين مثل أبي زيد الأنصارى وأبى عبيدة ، أعجبوا بما رأوا من أعراب يسألون الناس في الحلقة ويفوهون بالمعجب من القول ، فاتخذوا منهم أساسا بنوا عليه بناء فنيا جميلا (٢) .

وعندنا خبر يدل على أن هذه الحلقة كانت تضم أعرابا من قبائل شتى . فقد روى (٣) : « قال رجل من الأزد في مجلس يونس النحوى : وددت والله أن بنى تميم جميعا في جوفى على أن يضرب وسطى بالسيف . قال له شسيخ في ناحية المجلس حرمازى من بنى تميم : يا هذا ، يكفيك من ذاك . . » .

ولدينا عدة أخبار أخرى تحكى لقاء تم بين يونس بن حبيب وبعض الأعراب . ولكنها لا تبين موضع هذا اللقاء غير أننا نستنبط منها أنه لم يكن في حلقاته . ونستطيع أن نستنبط من بعضها أنه كان في البصرة ، مثل ذلك الأعرابى الذى روى قصته أبو عبيدة ، قيل (٤) : « جاء عن عمر في الحديث أنه قال : ثلاثة أسفار كذب عليكم : كذب عليكم الحج ، كذب عليكم الجهاد ، كذب عليكم العمرة . قال أبو عبيدة : هكذا سمعتها من العرب يرفعون بها في معنى الأعراء . . ما خلا أعرابيا من غنى - وكان فصيحاً - فإنه نصب : وذلك أنه دخل منزلى فرأى شويهة مضرورة فقال : ما بال هذه على ما أرى ؟ فقلت : أنا لنعلفها . فقال : كذب عليك البزر والنوى .

---

(١) النشر الفنى في القرن الرابع ١ : ١٩٧ - ٢٠١ .

(٢) انظر أيضا القفلى ٢ : ٣٦٦ . والزهر ٢ : ٥٢٢ .

(٣) العقد الفريد ٤ : ٥١ .

(٤) نوادر أبى مسحل الأعرابى ١١١ - ٤ .

فأتيت به يونس بن حبيب ، فكتبها عنه ، وكتب بعد ذلك منه علما كثيرا . وقال : هذا القياس .

وتصور لنا الأخبار المروية عن يونس والأعراب العلاقة بينهم ، وكيف كان يسلك الرجل شتى الطرق ليحصل على ما يريد منهم . فكان أحيانا يقتصر على الجلوس معهم والاستماع اليهم دون أن يتدخل في شيء . قال ابن سلام (١) : « سمع يونس أعرابيا وقد قال له أعرابى آخر : كبرت والله ! قال : أجل ، لقد طالت حياتى ، وتحنت قناتى ، وابيضت سراتى » .

وكان فى بعض الأحيان يحاور الأعراب ويفريهم على أن يمنحوه أخبارهم . قال ابن سلام (٢) : « سمعت أعرابيا يخبر يونس قال : فارق أعرابى امرأته فقالت : ان كنت اذا أكلت لتحتف ، واذا شربت لتشتف ، واذا نمت لتلتف . قال : والله ان كنت لبولة منعة ، طلعة قبعة » .

وكان فى أحيان أخرى يلجأ الى السؤال المباشر . قال (٣) : « سألت أعرابيا فقلت : أمسكين أنت ام فقير ؟ فقال : لا بل مسكين » .

وقد وصل إلينا أسماء بعض الأعراب الذين اتصل بهم يونس وأخذ عنهم . وأهمهم رؤبة بن العجاج ، الذى رأينا سابقا غيظته له حين هاجمه شبيل بن عزرة الضبعى . وقد لاحظ القسدماء العلاقة الوثيقة بين الرجلين ، فأعلن أبو الطيب عن يونس (٤) : « كان شديد الاختصاص برؤبة بن العجاج » .

---

(١) أبو أحمد العسكري ٧٤ . وانظر ذيل الأمالى ١١٩ ، واضداد أبى الطيب ٦٤٩ ، وجمهرة اللغة لابن دريد ٣ : ١٦٣ ، ومجالس ثعلب ٨ .

(٢) مجالس ثعلب ٤٥١ .

(٣) شرح ابن الأنبارى للمفضليات ٢٣٥ . وانظر المتصف ٣ : ١٨ .

(٤) مراتب النحويين ٢٢٠ .

وتنوعت صور أخذ يونس عن رؤية . فكان أحيانا يكتفى بمجرد الاستماع اليه وتسجيل حديثه ، كما فعل (١) حين روى أن رؤية يقول : « ما جاءت حاجتك » بالرفع .

وكان في أحيان أخرى يرصد ما يرويه من شعر غيره ، والطريقة التي ينشده بها (٢) ، كما فعل حين أعلن أن رؤية كان ينشد البيت التالي لأحد بني مدحج (٣) بالرفع :

عجب لتلك قضية ، واقامتى فيكم على تلك القضية أعجب

وكان في أحيان ثالثة يوجه السؤال المباشر الى رؤية . روى أبو عبيدة (٤) : « سأل يونس رؤية عن قول الله تعالى ( ما بعوضة ) فرفعها ، وبنو تميم يعملون آخر الفعلين والأداتين في الاسم . وأنشد رؤية بيت النابغة مرفوعا :

أقلت : ألا ليتما هذا الحمام لنا  
الى حمامتنا ونصفه فقسمد »

لم يكن يستهدف في كل أسئلته النحو كما سبق ، بل كان أحيانا يريد اللفظة ، ويقصد التعرف على معاني بعض الألفاظ . قال أبو عبيدة (٥) : سمعت يونس بن حبيب يسأل رؤية عن السانح والبارح فقال : السانح ما ولاك ميامنه ، والبارح ما ولاك مشائمه . وكان يونس أحيانا يعرض على رؤية ما عنده فيعلق عليه . روى أبو عبيدة (٦) : « وأنشده يونس بيت جرير :

---

(١) الكتاب لسيبويه ١ : ٢٥ .

(٢) الكتاب ١ : ١٦١ .

(٣) ينسب البيت الى هني بن أحرر الكنانى ( انظر المرجع نفسه ) .

(٤) مجاز القرآن ١ : ٢٥ .

(٥) شرح ديوان زهير ٥٦ .

(٦) الموشح ١١٩ .

انى - اذا الشاعر المفرور جربنى -

جار لقبير على مران مرموس

فقال رؤبة : كذب والله ، ما تميم بمران ، انما هو بذات عرق ،  
وقبر معد بمران .

وفي بعض الأحيان لم يكن يونس هو السائل أو المتحدث ،  
بل كان رجلا غيره ، فسجل هو ما وقع ، اذ وقع في حلقة . قال  
ابن سلام (١) : « سمعت يونس يقول : كان رؤبة عندي ، فقال له  
رجل : ما معنى قول العجاج :

وحبس الناس الأمور الحبسا

فقال له رؤبة : قلبه ويلك » .

وبلغ من الحاح يونس على رؤبة أن ضاق به ذرعا ، فقال له ذات  
مرة (٢) : « حتام تسألنى عن هذه الأباطيل وأزخرفها لك ؟ أما ترى  
الشيب قد بلغ في لحيتك » .

وقد ظهر أثر ذلك جليا في مرويات يونس ، فانه نسب اليه  
فيضا زائرا من المعلومات اللغوية والتحويلية والأدبية . فلا عجب أن  
ادعى أنه « غلام رؤبة » .

وبالرغم من ذلك لم يتقبل يونس كل شيء تفوه به رؤبة دون  
جدال ، بل كان في بعض الأحيان يؤاخذ ويؤاخذ أباه لاشتقاقات  
يخرجان فيها على القياس عنده ، حتى ضاق به رؤبة وقال له (٣) :  
علينا أن نقول وعليكم أن تعربوا .

(١) الموضح ٢١٨ .

(٢) السيرافي ٢٨ . ابن سلام ٥٨١ . البغية ٢ : ٣٦٥ . الزهر ٢ : ٣٦٣ .  
أبو أحمد العسكري ١٥٠ . العقد الفريد ٦ : ٢٦٧ . النزهة ٣٢ . القفطي  
٢ : ٣٦٦ . ابن خلكان ٢ : ٤١٦ .

(٣) سعيد الأفغاني : في أصول النحو ٥٦ . ( الحواشي ) . وانظر مجلة  
المجمع العلمي العربي بدمشق ١٤ : ٣٢٧ .

وأخذ يونس أيضا من أبي مهدية من ثقات الأعراب ، وروى عنه . قال (١) : « ذهبنا الى أبي مهدية في عقب مطر نسأله عن حاله - وكان قد بنى بيتا في ظاهر خندق البصرة وسماه جناحا - فقلنا له : كيف أنت يا أبا مهدية ؟ فقال :

عهدي بجناح اذا ما ارتسزا      واذرت الريح ترابا نـسـزا  
أن سوف تمضيه وما ارمـسـزا      كأنما لن بصخر لـسـزا

أحسن بيت أهـسـزا وبرأ

يقال : بيت حسن الأهرة والظهرة : اذا كان حسن المتاع . قال : وما كان في البيت الا حصر مخرق .

وحكى أبو الطيب خبرا يدل على أن يونس كان على صلة بأبي الدقيش ، الذي وصفه أبو الطيب بأنه « كان أفصح الناس » ، قال عن الأخفش (٢) : « قال يونس : سألت أبا الدقيش : ما الدقيش ؟ فقال : لا أدري ، إنما هي أسماء نسمعها فنتسمى بها . »

ولكن هذا الخبر نفسه مروي عن الخليل ، بل كان من روايته أبو الطيب (٣) عن الأخفش أيضا . غير أننا نلاحظ في رواية الخليل قوله : « دخلنا على أبي الدقيش نعوذه » فتحدث بضمير الجماعة . فربما كان العائدون للرجل كثيرين ، وكان فيهم الخليل ويونس .

وروى السيوطي خبرا يدل على أن يونس أخذ عن يكنى بأبي المحلم ، قال (٤) : « عن أبي المحلم قال : أشدت يونس أبياتا من رجز فكتبها على ذراعه ثم قال لي : انك لجيأ بالخير » . فان كان قصد أبا المحلم الشيباني ، الذي ألف كتب الأنواء ، والخيال ،

(١) ابن دريد : جمهرة اللغة ٢ : ٣٢٦ .

(٢) مراتب النحويين ٤٠ - ٤١ . الزهر ٢ : ٣١٨ .

(٣) مراتب النحويين ٤٠ .

(٤) الزهر ٢ : ٣٠٤ .

وخلق الانسان ، كان الخبر غير صحيح ، لأن ابن النديم (١) يصرح أنه مات في سنة ٢٤٨ ، أي بعد وفاة تلاميذ يونس ، فمحال أن يروى عنه .

ويبدو أن يونس أخذ عن أبي طفيلة الحرمازي ثم استضعفه بعد اقامته مدة في البصرة . قال أبو عبيدة (٢) : « قال أبو طفيلة : طه : يا رجل . فأنكره يونس وقال : أظنه سمعتها عندنا . . أين سمعت هذا ؟ فقال : بالبادية . فقال له يونس : ألسنت أخبرتنا أنك قدمت البصرة في حطمة فكنت مؤذن عمران القصير عشر سنين ، أو قال : نحوها » .

وذكر الجاحظ أن يونس أخذ عن رجل قد نعجب أن يأخذ عنه ، لأنه غير عربي ، قال (٣) : « كان يونس بن حبيب يسمع منه ( من أبي على الأسواري ) كلام العرب ويحتج به » . ولكننا حين نطلع على افاضة الجاحظ في الثناء على الرجل ووصف فصاحته ، يزول كثير من عجبنا . وبالرغم من ذلك أظن أن الجاحظ أراد أن يونس احتج بالأسواري فيما نقله عن العرب توثيقا له ، ولم يرد أنه احتج بلفته .

وكان يونس لا يقصر جهوده على أحد ، بل كان يبحث عن المعرفة في كل مظانها . فكان ممن بحث عنها عندهم الشعراء . فسعى اليهم واستمع إلى أشعارهم . وقد مر بنا في حوارهم مع الكسائي تصريح منه أنه استمع إلى الفرزدق وهو ينشد شعره (٤) . كذلك اتصل بلدى الرمة وروى أشياء عنه . ذكر الأصمعي عن يونس (٥) أنه

---

(١) الفهرست ٤٦ .

(٢) مجاز القرآن ٢ : ١٥ ( الحواشي ) .

(٣) البيان والتبيين ١ : ٣٦٩ .

(٤) وانظر كتاب سيبويه ١ : ٢٥٣ .

(٥) ابن دريد : جمهرة اللغة ٢ : ٣١ .

سأل ذا الرمة عن كلام ليس على وجهه ، فقال له : أتعرف اليتن ؟  
وهو الولد الذى تخرج رجلاه قبل رأسه عند ولادته . قال : نعم .  
قال : فكلامك هذا يتن .

نتبين من هذه الأخبار حرص يونس بن حبيب على علوم  
العربية ، وإقباله عليها ، لا يشغله عنها شغل ، وبحشه عنها فى كل  
مجال ، وعند كل أهل للبحث عنده . واجتمع هذا الجهد الدائب  
الى ذاكرة واعية ، جعلت إبل الخطاب زياد بن يحيى يقول (١) : « مثل  
يونس كمثلكوز ضيق الرأس لا يدخله شيء الا بعسر ، فاذا دخله  
لم يخرج منه » - يعنى لا ينسى ، وكان الرجل الذى يتحلى بهذه  
الصفات ذا شخصية قوية ، وعقل حر ، ورأى مجتهد . فكانت  
الثمرة عالما يبرز بين العلماء ، ويحوز الشهرة بين المشهورين ،  
فلا يخمله علم ، ولا يطفئه نجم . فقرنت البصرة بينه وبين أشهر  
أبنائها من العلماء حينئذ : الخليل بن أحمد الفرهودى (٢) .

---

(١) القفطى ٢ : ٣٦٤ .

(٢) آثرت هذه النسبة مجاملة ليونس الذى كان يحتمها ، وان كانت  
الفراهدى أشهر .

## الفصل الثالث

### بازل العلم

#### حلقة

ليس غريبا اذن أن يتنبه طلبة العلم الى رجل بالصفات التي تبينت لنا سابقا ، بل الغريب ألا يفعلوا . وليس غريبا أن يلتفوا حوله ، فيؤلفوا واحدة من حلقات البصرة العلمية . وخاصة اذا وضعنا نصب أعيننا قول أبي زيد (١) : « ما رأيت أبذل لعلم من يونس » .

ولست أستطيع أن أحدد مبدأ هذه الحلقة ، ولكنني عثرت على خبر يدل على أنها كانت قائمة قبل وفاة الخليل . قال النضر ابن شميل (٢) : « جاء رجل من حلقة يونس فسأل الخليل عن شيء .. » .

ولما انتقل الخليل الى جوار ربه انفرط عقد حلقة ، وانخرط كثير من أفرادها في حلقة يونس أو ثبتوا فيها بعد أن كانوا يترددون بينها وبين حلقة الخليل . بل نفهم من بعض الأقوال أنه شغل المكان الشاغر في حلقة الخليل (٣) . فصارت حلقة في وصف مروان ابن أبي حفصة لها : « فلم أر حلقة أعظم من حلقة يونس » .

---

(١) سبط اللأى ١٩٥ . القفطى ٢ : ٣٦٤ .

(٢) الشريشي ٢ : ٢٤٧ . الشرقات ١ : ٢٧٦ . مرآة الجنان ١ : ٣٦٤ .

(٣) نزهة الألباء ٤٣ .

ولعل من أكبر الأدلة على عظم هذه الحلقة واحتفالها بالناس قصد السائلين أياها ، كما أبانت بعض الأخبار السابقة ، وكما نرى في قول أبي عبيدة (١) : « كنت في حلقة يونس فجاء أعرابي . فوقف علينا فقال : « من ينصرني نصره الله » . فقال يونس : « ألتكم والله من قرب : من يرزقني رزقه الله . قال الله عز وجل : ( من كان يظن أن لن ينصره الله ) أي يرزقه الله » .

وقد طال عمر هذه الحلقة بطول عمر صاحبها ، حتى قال أبو زيد الأنصاري (٢) : « جلست الى يونس بن حبيب عشر سنين ، وجلس اليه قبلى خلف الأحمر عشرين سنة » . وربما مال بنا الظن الى أن أبا زيد بالغ في قوله أو تهاون في ذكر السنين . ولكننا نجد الظاهرة تتكرر عند تلميذ آخر للرجل ، هو أبو عبيدة ، الذى قال (٣) : « اختلفت الى يونس أربعين سنة أملاً كل يوم الواحى من حفظه » . فهذا التكرار يقطع الشك أو يضعفه ، وخاصة اذا قرناه بأن الرجل عاش قرابة قرن من الزمان .

وعرفنا سابقا أن هذه الحلقة التى امتازت بالعظم وطول العمر ، توفر لها التنوع أيضا ، فكانت مقصد فئات كثيرة من الناس ، كما وصفها الواصفون . ونستطيع أن نطمئن الى هذا الوصف لأن الأخبار المتعددة تؤيده . وقد أوردت آنفا من الأخبار ما يكشف عن كونها مقصد الأعراب للالتقاء بهم والتحدث معهم أو لسؤال المترددين عليها .

وتردد على الحلقة أيضا الشعراء لانشاد ما استحدثوا من شعر ، كما فعل مروان بن أبى حفصة في مدحته للمهدى التى أراد

(١) القفطى : ٢ : ٣٦٦ .

(٢) القفطى : ٢ : ٣٦٦ . ياقوت : ٢٠ : ٦٥ ، ابن خلكان : ٢ : ٤١٦ . ابن العماد : ١ : ٣٠١ .

(٣) القفطى : ٢ : ٣٦٦ . ياقوت : ٢٠ : ٦٥ ، ابن خلكان : ٢ : ٤١٦ . أبو الطيب : ٢١ ، المزهري : ٢ : ٣٦٦ . ابن العماد : ١ : ٣٠١ .

أن يستفتى فيها يونس ، وفعل بشار بن برد في أبياته التي كانت السبب المباشر في مقتله .

غير أن الهدف الأول الذي رمى اليه كل الدين قصدوا الحلقة هو « علم العربية » ، الذي برز فيه يونس ، وبرز فيه تلاميذه الملتفون حوله . وكان قصد الكسائي حلقة يونس ضربة حظ للدارسين ، إذ أثار من النقاش ما لفت أنظار كثيرين فسجلوا بعضه ، فأعطونا صورة مما كان يدور في الحلقة ، ومسالك الحوار فيها . وقد أوردت عدة أخبار في هذا الشأن ، غير أنني أحب أن أضع هنا هذه الصورة المفصلة . قال المازني (١) : أن مروان بن سعيد المهلبى سأل الكسائي بحضرة يونس : « أى شيء تشبه ( أى ) من الكلام ؟ » فقال : « ما ومن » . فقال له : « فكيف تقول : لأضربن من في الدار ؟ » قال : « لأضربن من في الدار » . قال : « فكيف تقول : لأركبن ما تركب ؟ » قال : « لأركبن ما تركب » . قال : « فكيف تقول : ضربت من في الدار ؟ » قال : « ضربت من في الدار » . قال : « فكيف تقول : ركبت ما ركبت ؟ » قال : « ركبت ما ركبت » . قال : « فكيف تقول : لأضربن أيهم في الدار » . قال : « لأضربن أيهم في الدار » . قال : « فكيف تقول : ضربت أيهم في الدار ؟ » قال : « لا يجوز » . قال : « لم ؟ » قال : « ( أى ) كذا خلقت » .

وكان يونس في بعض الأحيان هو الذى يثير تلاميذه ، إذ يختار أحدهم ، ويوجه إليه سؤالاً ، ليمهد السبيل أمام النقاش . روى العباس بن ميمون قال (٢) : « سمعت الأصمعى — وذكر مروان ابن أبى حفصة فقال : كان مولدا ولم يكن له علم باللغة ، حضرته في حلقة يونس ، وسأل يونس عن قول زهير :

---

(١) السيراقى ٢٧ . مجالس العلماء ٢٤٤ . الزهر ٢ : ٣٧٣ ، الخصائص

٣ : ٢٩٢ .

(٢) الموضح ٢٥١ .

فبتنا عراة عند رأس جوادنا يزاولنا عن نفسه ونزاوله  
فقال مروان : من العرواء من البرد . فقلت له : اخطأت ،  
لو كانت من العرواء لقال : فبتنا معروين ، انما عنى أنهم باتوا  
مشمريين كما يقال : تجرد فلان للأمر .

وكانت حلقة يونس - شأن الحلقات العلمية الحية - مسرحا  
لمعارك أدبية ، اثر خلافات تنشب بين روادها . روى التوزي (١) :  
« صحف الفيض بن عبد الحميد في حلقة يونس بن حبيب - وأنشد  
بيت ذي الاصبغ العدواني :

عذير الحي من عدوا ن كانوا حيسة الأرض

قال الفيض : جنة الأرض - فقال خلف الأحمر يهجوهُ :

|                       |                            |
|-----------------------|----------------------------|
| لنا صاحب مولع بالخلاف | كثير الخطاء قليل الصواب    |
| أشد لجاجة من الخنفساء | وأزهى إذا ما مشى - من غراب |
| إذا ذكروا عنده عالما  | ربا حسدا أو رمياه بعاب     |
| وليس من العلم في كفه  | إذا ذكر العلم غير التراب   |
| اضاليل جمعها شوكر     | وأخري مولدة لابن داب       |

فزاد أبان على أبياته - وذكر تصحيفا لأبي العتبي ، وقد ذكر  
رجلا فقال : يكنى أبا الضيم ، وانما هو آبي الضيم - فقال أبان :

|                           |                             |
|---------------------------|-----------------------------|
| فلو كان ما قد روى عنهم    | سماعا ولكنه من كتاب         |
| رأى أحرفا شبهت في الهجاء  | سواء إذا عدها في الحساب     |
| فقال : أبا الضيم يكنى أبا | وليس ( أبا ) انما هو آبي    |
| وفي يوم صنفين تصحيفة      | وأخري له في حديث الكلاب     |
| وتصحيف فيض بن عبد الحميد  | د في جنة الأرض أو في الرباب |
| وعالى بذلك في صوته        | كقعقة الرعد بين السحاب »    |

فكانت حلقة يونس بذلك مجمعا للمذاكرة ، والاستشارة ،  
والمناشدة ، والمخابرة . قال الأصمعي (١) : « أول من نعى المنصور  
بالبصرة خلف الأحمر : كنا في حلقة يونس ، وجاء خلف فسلم وقال :  
« قد طرقت ببيكرها أم طبق » فقال يونس : وما ذاك يا أبا محرز ؟  
فقال : « فنتجوها خبرا ضخم العنق » فقال : لم أدر بعد . فقال :  
« موت الامام فلقة من الفلق » فارتفعت الضجة بالاسترجاع .

### تلاميذه

لما كان يونس بن حبيب رضى الخلق ، باذلا للعلم ، التف حوله  
كثير من التلاميذ ، وعظمت حلقة كما رأينا . وكان الرجل محظوظا  
فيهم ، فبرز منهم كثيرون في علوم شتى .  
فاشتهر منهم في اللغة أبو عبيدة معمر بن المثنى ، وعبد الملك  
ابن قريب الأصمعي ، وأبو زيد سعيد بن أوس الأنصارى (٢) ،  
وأبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدى (٣) ومحمد بن المستنير  
قطرب . وطالت صلة أولهم بالرجل فكثرت روايته عنه كثرة  
واضحة . واختص به آخرهم دون غيره من اللغويين (٤) .  
واشتهر منهم في النحو أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه ،  
وأبو عمر صالح بن إسحاق الجرمي (٥) . وقد اتفق القدماء (٦) على  
أن سيبويه « روى عنه وأكثر » . ومصداق قولهم الاحصاء الذي  
قام به الدكتور مهدي المخزومي (٧) وأبان له أن سيبويه ذكر يونس

- 
- (١) الزمخشري : وبيع الأبرار ٤ : ٦٤ ط .  
(٢) أبو الطيب ٣٩ - ٤٠ . المهر ٢ : ٣٩٩ . ياقوت ٢٠ : ٦٤ .  
(٣) أبو الطيب ٩٨ .  
(٤) أبو الطيب ٦٧ . المهر ٢ : ٤٠٥ . ازداد أبي الطيب ٢٤ .  
(٥) السرايى ٥٦ . البنية ٢ : ٨ . النزهة ٩٨ .  
(٦) السرايى ٢٧ ، ٢٧ . البنية ٢ : ٢٢٩ ، ٣٦٥ . القفطى ٢ : ٣٦٥ .  
ابن قاضي شهاب ٢٥٢ . ابن خلكان ٢ : ٤١٦ .  
(٧) الخليل بن أحمد ٢١٩ .

« في ثمانين ومائة موضع من كتابه ، وربما أورد ليونس فصلا كاملا كما جاء في بحث التصغير » . ولهذا السبب صرح صاحب المصون أن سيبويه أدرج أهم أقوال يونس في كتابه ، قال (١) : « ثم جمع سيبويه علم البرعاء من النحويين القدماء كلهم ، فذكر في كتابه مذهب الخليل ، ومذهب يونس ، ومذهب أبي عمرو ، ومذهب ابن أبي اسحاق . . » .

ولحسن الحظ أن يونس اطلع على كتاب سيبويه وأقر كل ما حكاه عنه . قال المبرد (٢) : قال يونس - وقد ذكر عنده سيبويه : « اظن هذا الغلام يكذب على الخليل » . فقليل له : « قد روى عنك أشياء فانظر فيها » . فنظر فقال : « صدق في جميع ما قال ، هو قولي » .

وبسبب هذا القول كان كتاب سيبويه المعتمد الأول لمن يريد أن يدرس آراء يونس ، وأن يثق بأن ما بين يديه من أقوال صادرة حقا عن الرجل . وعلى هذا الأساس أقمت دراستي .

وتتفق المراجع أيضا أن بعض أعلام الكوفيين قصدوا يونس ابن حبيب ونقلوا عنه ، أعني بذلك أبا الحسن علي بن حمزة الكسائي ، وأبا زكريا يحيى بن زياد الفراء (٣) . أما الكسائي فقد وقع بصرنا عليه عدة مرات في حلقاته . وأما الفراء فقد أخذ عن الرجل نحوا (٤) ، وشعرا (٥) . ولاحظ الأستاذ سعيد الأفغاني خلافا غير

---

(١) ١١٩ .

(٢) السيرافي ٣٧ ، أبو الطيب ٧٦ - ٧ ، البغية ٢ : ٢٢٩ . النزهة ٢٩ .

الزبيدي ٤٩ .

(٣) السيرافي ٢٧ ، ٤٤ . البغية ٢ : ٣٣٣ ، ٣٦٥ . أبو أحمد العسكري

١٢٥ . المزهري ٢ : ٤١٠ . النزهة ٣١ . القفطي ٢ : ٣٦٦ . ياقوت ٢٠ :

٦٤ . ابن قاضي شعبة ٢٥٢ . ابن خلكان ٢ : ٤١٦ .

(٤) مجالس ثعلب ٤٥٦ .

(٥) السيرافي ٢٨ .

متوقع في هذه المناسبة ، قال (١) : « الطريف تشاد البصريين والكوفيين في قراءة الفراء على يونس بن حبيب البصري استاذ سيبويه تشادا على غير المنتظر ، فالكوفيون يزعمون أنه استكثر عنه ، والبصريون يدفعون ذلك » .

واشتهر من تلاميذه في الأدب والأخبار أبو محرز خلف بن حيان الأحمر ، وأبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي (٢) ، أن لم أذكر أبا عبيدة لروره في اللغويين . ونظرة واحدة في كتاب طبقات فحول الشعراء للجمحي ، وفي الأخبار التي أوردتها في دراستي هذه كافية لتبين قدر دين الرجل لأستاذه .

وذكر ابن الجزري (٣) جماعة من تلاميذه في قراءة القرآن ، هم « ابنه حرمي بن يونس ، وأبو عمر الجرمي ، وإبراهيم بن الحسن ، وعبد الله بن سليمان ، وعيسى الأسدي ، وموسى بن عبد الصمد الأبلق » .

وذكر ابن أبي حاتم (٤) رجلين رويَا عنه الحديث ، هما زياد ابن عثمان بن زياد بن أبي سفيان ، وقريش بن أنس .

---

(١) في أصول النحو ١٦٦ .

(٢) المزمع ٢ : ٤٠٥ .

(٣) غاية النهاية ٢ : ٤٠٦ .

(٤) ابن قاضي شبهة ٢٥٢ .



## الباب الثاني

المؤلف

حكى ابن الأنباري (١) عن يونس بن حبيب أنه قال : « دخلت على أبي عمرو الشيباني وبين يديه قمطر فيه أمعاء من الكتب يسيرة ، فقلت له : أيها الشيخ ، هذا جميع علمك ؟ فتبسم الى وقال : هذا من صندوق كبير » .

تدلنا هذه الحكاية - أن صحت - أن يونس كان لا يتشدد في أمر حفظ العلم في الصدور شأن العصر الذي عاش فيه وشهد انتقال العرب من الاكتفاء بالحفظ الى الاعتماد على التدوين ، وأنه كان يتسمح في تقييد العلم في مدونات . ولذلك لا نعجب أن ينسبوا اليه بعض الكتب .

ولكن ما عدد هذه الكتب التي دونها ابن حبيب ، وخلفها لمن جاء بعده من أجيال ؟

أعتقد أن من يعتمد على مذكرته المراجع فيصرح أنه أصدر أربعة كتب ، لا يبعد عن الصواب . أما من يذكر أنها ستة ، فهو ينظر الى ظاهر الاحصاء ولا يستبطنه .

فقد نسب القدماء الى الرجل كتاب « معاني القرآن » . ثم صرح ابن النديم وياقوت (٢) ( نقلا عنه في الغالب ) أنه له كتابان بهذا الاسم ، واحد كبير ، وآخر صغير .

وتكرر الأمر في كتاب آخر له . اذ اكتفى ياقوت (٣) بأن قال له كتاب النوادر . وأعلن ابن خلكان والقفطي (٤) ان له كتاب النوادر

---

(١) النزهة ٦٣ .

(٢) الفهرست ٣٤ ، ٤٢ . معجم البلدان ٢٠ : ٦٧ .

(٣) ٢٠ : ٦٧ .

(٤) الوفيات ٢ : ٤١٦ . انباه الرواة ٢ : ٣٦٧ .

الصغير ، ولم يذكر سببا لهذا الوصف . أما ابن النديم (١) فكان صريحا أن الرجل كان له النوادر الكبير ، والنوادر الصغير .

ولما كانت هذه الكتب لم تقع بأيدي العلماء بعد ، كان لابد من الاعتماد على الظنون فيها . وظنى أن الكتاب الصغير والكبير - من المعانى أو النوادر - إنما هو كتاب واحد ، بدأ الرجل فى أملائه فكان صغيرا ، ولكنه كان يعود اليه بين الفينة والفينة ويضيف اليه ثم يعيد أملاءه فى حلقة . فهما إذن نسختان من كتاب واحد : أولاهما فى الزمن صغيرة ، وأخيرتهما تحتوى على الأولى كلها ثم تضيف اليها مادة جديدة . وأمثلة لذلك بكتايب الأبل اللذين طبعا للأصمعى ، ويؤيدان هذا الظن كل التأيد .

# الفصل الأول

## الكتب المعروفة

### كتاب النسب والنسب

أهم كتاب من كتب يونس ، لدينا معلومات عنه ، ومقتبسات منه ، هو « النوادر » . فقد أخذه منه تلميذه محمد بن سلام ، وأصدر نسخة بقيت الى عصر متأخر . ثم فقدت غير مختصر اختاره منها بعض العلماء ، فوقع في يد السيوطي ، فاحتفظ به أو بجملة صالحة منه في مزهره . قال السيوطي (١) : « وفي النوادر ليونس ، رواية محمد بن سلام الجمحي عنه - وهذا الكتاب لم أقف عليه الا أني وقفت على منتقى منه بخط الشيخ تاج الدين بن مكتوم النحوي ، وقال : انه كتاب كثير الفائدة قليل الوجود . . » .

وأرجح أن النوادر هو الكتاب الذي أفاد منه الصفاني في كتابه « ما تفرد به بعض أئمة اللغة » ، المحفوظة مخطوطته في دار الكتب المصرية تحت رقم ٤١٨ لغة ، واغترف منه مادة أفرد لها القسم الثاني من الكتاب . فان صح هذا ، كان لنا الحق أن نضيف الى ما سبق أن النوادر له روايتان أخريان ، أشار لهما الصفاني في قوله معقبا على لفظ الثقة : « كذا وجدته محققا في نسخة قرئت على ابن دريد ، وعليها خطه ، وعلي السيرافي ، وعليها خطه » .

ونستطيع أن نطمئن الى هذا الترجيح حين نعرف أن أبا سعيد الحسن بن عبد الله السيرافي كان مهتما بالنوادر حتى ألف نقدا عليها . وقد رد أبو محمد الحسن بن محمد النسابة التميمي التاهرتي على هذا النقد .

(١) المهر ٢ : ٢٨٩ .

وعلى هذا الأساس أستطيع أن أضع ما بين يدي من أخبار في ثلاثة أصناف : صنف صرح آخذه بأنهم استعاروه من النوادر ، وهو ما وضعه السيوطي في مزهره ؛ وصنف أرجح أنه مأخوذ من النوادر أيضا ، وهو ما وضعه الصفاني في كتابه ؛ وصنف أظن أنه من النوادر لأن نهجه قريب من نهج الصنفين الأولين غير أن آخذه لا ينسبونه إلى كتاب من كتب يونس .

ومن الخطأ أن نعتمد اعتمادا تاما على ما بقى من مقتبسات في استنباط منهج الكتاب ، والموضوعات التي عني بها ، والظواهر التي غلبت عليه ، وخاصة من النواحي السلبية . فأنها مثلا تخلو من الشعر ، ومن نسبة أي قول إلى أحد من شيوخ يونس . ولكننا حين نذكر أن ما أورده السيوطي مأخوذ من منتقى ، وما أورده الصفاني مختار ، يميل بنا الرأي إلى أن ذلك ربما كان من المختصرين ، وأن الكتاب الأصيل ربما كان مختلفا عن ذلك .

ومما يطمئننا إلى ذلك وجود كلمتين ينسبهما الرجل إلى أحد أساتذته . قيل في المزهري (١) : « قال يونس في نوادره : قال أبو عمرو بن العلاء : لا يكون الشواظ إلا من النار والنحاس معا » . وقيل (٢) : « قال في قوله تعالى : « فرهن مقبوضة » قال أبو عمرو ابن العلاء : الرهن والرهان عربيتان ، والرهن في الرهن أكثر ، والرهان في الخيل أكثر » .

ولكننا إذا كنا لا نستطيع أن نعتد على هذه المقتبسات في الظواهر السلبية ، فأننا نستطيع ذلك في الإيجابية ، مع الاحتراس في قدر انتشارها في الكتاب .

وأول ما يتجلى للناظر في المزهري عناية المؤلف باللهجات العربية ، وخاصة اثنتين منها . فالفصل الذي أورده السيوطي هو في

---

(١) ٤٥٣ : ١ .

(٢) ٢٨٩ : ٢ .

الحقيقة قائمة طويلة بما بين لهجتى قریش وتميم من خلاف فى بعض الكلمات ، واليك ما أورده السيوطى دون تدخل منى ، فى غير التنظيم على شكل قائمة . قال (١) : « قال يونس فى نوادره :

أهل الحجاز يقولون : خمس عشرة - خفيفة لا يحركون الشين . وتميم ثقل وتكسر الشين ، ومنهم من يفتحها .

أهل الحجاز يبطش . وتميم يبطش .

أهل الحجاز أيها . وتميم هيهات .

أهل الحجاز مرية . وتميم مرية .

أهل الحجاز الحصاد . وتميم الحصاد .

أهل الحجاز الحج . وتميم الحج .. « (٢) .

ونجد هذا الاهتمام باللهجات القبلية واضحا فى فصل الصفانى ايضا . فكثيرا ما أورد اللفظ واكتفى فى التعليق عليه بأنه لهجة ، دون أن ينسبها الى واحدة من القبائل ، مثل قوله : « متى : لغة فى متى فى الاستفهام والشرط دون الظرف .. يجن عليه الليل : لغة فى يجن .. أفوق سهمه : لغة فى أفاقه وأوقه .. » .

وصرح فى أربع مرات بأصحاب هذه اللهجات ، فكانت مرة لتميم ، مثل قوله : « يسمت فى الهداية : لغة تميم فى يسمت » ؛ وثانية لأحد بطون تميم ، مثل قوله : « قال رجل من بنى يربوع فى قولهم : لا يعرف هرا من برة هو من قولهم : أبررت شائى : أى أصدرتها ، وهررت بها : أى أوردتها » ؛ وثالثة لغير تميم ، مثل قوله : « أهل العالية يقولون : ما لقيته منذ اليوم ، وأهل نجد يقولون : منذ اليوم ؛ والرابعة لهذيل مثل قوله : « أجوبت القدر ، وهذيل تقول : أجيبتها : أى غلفتها » .

(١) المزهر ٢ : ٢٧٥ - ٦ .

(٢) يختلف ضبط هذه الالفاظ فى اللهجتين .

واذا اعتمدنا على قائمة المظهر نستطيع أن نصنف الظواهر اللغوية التي عني بها يونس ورصدها في كتابه على النحو التالي :

١ - اختلاف القبائل في ضبط الكلمات ، وهو أكثر الأنواع ورودا في القائمة ، مثل قوله : « أهل الحجاز رضوان وتميم رضوان .. أهل الحجاز : على رغبة ، وتميم : على رغبة ... أهل الحجاز : مزعة ومقبرة ومشرعة ، وتميم : مزعة ومقبرة ومشرعة » .

ونجد هذه الظاهرة موجودة بمثل هذه الكثرة في فصل الصفاني ، حتى أننا نستطيع أن نقسمها بدورها إلى أنواع جزئية يندرج تحتها أمثلة عدة . فهناك الاختلاف في ضبط الأفعال ، مثل قوله : « ينثر ما في الجراب : مثل ينثر ... يخطر ببالي : لغة في يخطر .. عمن الأمر . لغة في عمن وعمن » . والاختلاف في ضبط الأسماء ، مثل قوله : « فلان من سفلة الناس : لغة في السفلة والسفلة .. ومصدر إلا - أي قصر - ألو وألو وحذارك منه ، وحذارك منه : بمعنى حذار منه » . والاختلاف في ضبط المركبات ، مثل قوله : « لعمرى - بالتحريك : لغة في لعمرى » .

وكذا الأمر في المقتبسات المهمة التي لا يبين أخذها عن أي واحد من كتب يونس أخذها . مثال ذلك (١) : « روى أبو عبيدة عن يونس أن من العرب من يقول : هذا فم ، ورأيت فما ، وأخرجه من فمه ، فيلزم الفاء الكسر في الرفع والنصب والخفض » ، وقول السيوطي (٢) : « قال يونس : غرفت غرفة واحدة ، وفي الاناء غرفة ، ففرق بينهما ، وكذلك قال في الحسوة والحسوة » .

٢ - الاعلال والابدال ، وأورد السيوطي في قائمته ثلاثة أمثلة لاعلال كل من الواو والياء . فقد تتبادل الواو والياء مكانيهما ، مثل

---

(١) ابن الأنباري : شرح القصائد السبع الطوال ٢٥٠ .

(٢) المهر ٢ : ٢٩٩ .

قوله : « أهل الحجاز : قلنسية ، وتميم : قلنسوة . . أهل الحجاز : القنية ، وتميم : القنوة » . وتبدل إلقاء تاء ، مثل قوله : « أهل الحجاز : اتخذت ووخذت ، وتميم اتخذت » ، وتبدل الياء ألفا ، مثل قوله : « أهل الحجاز : القير ، وتميم : القار » . وتقترب الهمزة من حروف العلة في الإبدال ، وفي القائمة مثال أبدلت فيه هاء ، قيل : « تميم : هيهات ، وأهل الحجاز : أيهات » .

وأمثلة الاعلال والإبدال كثيرة ومتنوعة في فصل الصفاني . فلا تقتصر على حروف العلة والهمزة بل تتعداها إلى الميم . ولكن أكثر الأمثلة كلمات تحتوي على الهمزة أو الواو ، مثل قوله : « كان من الأمر زيت وزيت ، وذية وذية ، وذياء وذياء : لفات في زيت وذيت » وقوله : « أج : لغة في وج » وقوله « ذرا فوه يذرو ، وذري يذري ، وذرا يذرا : أي سقط » .

ويليهما في الكثرة تبادل الميم والنون مكانيهما ، مثل قوله : « الامتطال : الانتطال . . هو شراب بأمقع : مثل بأنقع » . ثم تتساوى بقية الحروف التي يقع فيها إبدال ، مثل قوله : « أتى : بمعنى حتى وعنى . . ادمل من مرضه : أي اندمل » .

وتبين من النظر في الأمثلة السابقة وغيرها أن بعض أنواع الإبدال التي ذكرها المؤلف غير قياسي ، وبعضها الآخر قياسي كان يونس في غنى عن ذكره ، وخاصة ما اتصل بالهمزة وتخفيفها وإبدالها . مثال ذلك ما جاء في قائمة السيوطي : « أهل الحجاز : جونة ، بلاهمز ، وتميم : جونة ، بالهمز » وما جاء في فصل الصفاني : « الاعاء والاكاء والوقاء : لغات في الوعاء والوكاء والوقاء » .

٣ - الاختلاف في صيغ الكلمات ، سواء كانت أفعالا أو أسماء . وأمثله في قائمة السيوطي : « أهل الحجاز : سل ربك ، وتميم : اسأل . . أهل الحجاز : هو الذي ينقد الدراهم ، وتميم : ينتقد . . أهل الحجاز : الكراهة ، وتميم : الكراهية » . وأمثله في فصل

الصفاني : « أنجمت السن : مثل نجمت . استنوى : القى النوى ، كنوى ونوى وأنوى .. أجنب الرجل : مثل أجنب وجنب » .

ويستحق الذكر الخاص من هذا الاختلاف ما وقع منه في المصادر والجموع ، اذ يبدو أن القبائل وقع بينها اختلاف كبير في صيغهما لفت أنظار المؤرخين فأفردوا الكتب لكل من النوعين . أما يونس فلم يذكر أحد أنه دون كتابا خاصا بأيهما ، ولكن المقتبسات الباقية تدل على أنه وجه اليهما عناية عظيمة ، وخاصة الى الجموع . وقد ذكرت آنفا ما قال من الرهن ، وأضيف اليه هنا بعض ما جاء في فصل الصفاني ، قال : « الوهدان : الوهاد .. جمع الجذع جذاع وأجداع ويجدعان مثل جذاع وجدعان .. اللؤمان : اللثام » . بل وصل الأمر الى أن نسبت بعض الجموع اليه مثل آخاء (١) ، والى أن تنبه الى القاعدة العامة ، مثل قوله : « ما كان جمع ففيل من المضاعف يقال فيه فعل وفعل ، مثل قليل وقل وقلل » .

وأمثل لعنايته بالمصادر بما جاء عند الصفاني : « مصدر شعرت بالشيء شعرة وشعرة وشعور ، كالشعر والشعري والمشعور والمشعورة .. قدمت البصرة قدمانا : أي قدوما » .

{ - الحذف ، بأن يسقط من الكلمة في إحدى اللغات حرف أو أكثر ، سواء كانت الكلمتان : الناقصة والتامة تعودان الى أصل واحد اتفق عليه النحاة ، أو تعودان الى أصليين مختلفين أو أصول مختلف فيهما النحاة . مثال ذلك في قائمة السيوطي : « أهل الحجاز : ليلة ضحيانة ، وتميم : ليلة اضحيانة . أهل الحجاز : ما رأته منذ يومين ، ومنذ يومان ، وتميم : مذ يومين ويومان ، فيتفق أهل الحجاز وتميم على الإعراب ، ويختلفون في مذ ومنذ : فيجعلها أهل الحجاز بالنون وتميم بلا نون » . وأمثله في مقتبسات الصفاني : « فلان مضلع لهذا الأمر : أي مضطلع ، وكذلك مطلع .. »

(١) سر الصناعة ١ : ١٦٦ .

السوذك والسوذكى : لغتان فى السوذك والسوذكى . المضرخ :  
المضرخى ، كالقطام للقطامى .

٥ - التذكير والتأنيث . وأورد له السيوطى مثالا واحدا ، قال :  
« اهل الحجاز : ليست له همة الا الباطل ، وتميم : ليس له همة  
الا الباطل » . وأورد الصفانى من أمثله قوله : « ليلة مقمر : مثل  
مقمره . يقال : كثرت مال فلان ، يؤثثون المال كما أثثوا القوم ، قال  
الله تعالى : « كذبت قوم نوح المرسلين » . امرأة حاصنة : مثل  
حاصن » . وأورد ابن سلام (١) : « قال يونس : يقولون : حية ذكر ،  
ونعامة ذكر ، وشاة ذكر ، وبطة ذكر ؛ ولم أسمعه منه » .

٦ - الصيغ الشاذة فى القياس . فالصرفيون لا يجيزون  
الاشتقاق من أسماء الأجناس ، ويحكمون على ما جاء من ذلك  
بالشدوذ . ويبدو أن يونس عنى بأمثال هذه الصيغ الشاذة ،  
اذ أورد السيوطى له مثالا منها ، يقال (٢) : « فى نوادر يونس : فاكه  
من الفاكهة ، مثل لابن ولامر » .

وهناك ظواهر لغوية أخرى تتجلى فى الفصل الذى اقتبسه  
الصفانى من يونس ، والمقتبسات المهمة الأخرى عنه ، مثل الصيغ  
الغريبة ، والمثنيات ، والمركبات ذوات المعنى الغريب ، والألفاظ  
التي قد تتداخل معانيها ، والألفاظ المماثلة ، واختلاف الإعراب .  
ولكننى لا أتحدث عنها هنا اذ لم أجد نصا صريحا يقطع بكونها من  
كتاب النوادر .

وأحب أن أشير - قبل أن أخلص من الحديث عن النوادر - الى  
أن يونس تعرض فيه لبعض الألفاظ القرآنية ، كما رأينا فى الرهن ،  
وكما نرى فى قول السيوطى (٣) : « قال يونس فى قوله تعالى :

(١) طبقات فحول الشعراء ٤٣٤ .

(٢) المزمع : ٢ : ٢٧٥ .

(٣) المزمع : ٢ : ٢٨٩ .

« ويهيىء لكم من أمركم مرفقا » : الذى اختاره المرفق فى الأمر ،  
والمرفق فى اليد . ويبدو أيضا أنه اتخذ من بعض الآيات شواهد  
على أقواله ، كما رأينا فى حديثه عن التذكير والتأنيث .

وأشير إلى أن يونس من رواد المؤلفين فى النوادر ، اذ لم يسبقه  
غير أستاذه أبى عمرو بن العلاء ثم ألف فيها من معاصريه القاسم  
ابن معن الكوفى ، وأبو مالك عمرو بن كركرة ، والكسائى ، وأبو شبل  
العقيلى ، وأبو المضر حى . ولهذا السبب كانت نوادره أحد ينبوع  
التى اغترف منها من جاء بعده من اللغويين ، أمثال ابن دريد  
وابن قتيبة وابن سيده (١) .

### كتاب الأمثال

ذكر المؤرخون أن يونس بن حبيب ألف كتابا فى الأمثال ، بهذا  
العنوان . وإذا كان الحظ الحسن قد منحنا مختصرا أو منتقى من  
كتاب النوادر ، فانه لم يفعل ذلك فى هذا الكتاب . ولكنه لم يتخل  
كل التخلى عنه .

فقد راجعت ما بين أيدينا من كتب الأمثال فلم أعر على نص  
صريح مأخوذ منه ، حتى الميدانى الذى حاول الاطلاع على المؤلفات  
السابقة عليه لم يصرح بالرجوع اليه ، حين قال (٢) : « فطالعت من  
كتب الأئمة الأعلام ما امتد فى تقصيه نفس الأيام ، مثل كتاب  
أبى عبيدة وأبى عبيد والأصمعى وأبى زيد وأبى عمرو وأبى فيد ،  
ونظرت فيما جمعه المفضل بن محمد والمفضل بن سلمة ، حتى لقد  
تصفحت أكثر من خمسين كتابا . . » . ولعل أقرب الأقوال إلى  
التصريح ماجاء فى فصل المقال (٣) : « أورد يونس هذا المثل » ، وأن

---

(١) حسين نصار : المعجم العربى ١٣٣ - ١٤٥ .

(٢) مجمع الأمثال ١ : ٧ .

(٣) ٢٥٦ .

كان هذا القسول لا يقطع بأنه أوردته في كتاب الأمثال ، فلا زال الاحتمال بأن ذلك كان منه في بعض كتبه الأخرى قائما .

وبالرغم من ذلك عثرت على عدد من الأمثال والأقوال المنسوبة الى يونس ، في مجمع الأمثال ، وفصل المقال ، واصلاح المنطق ، وغيرها . وعلى هذه المقتبسات اعتمد في دراستي هذه ، اذ اننى أرجح أن ما أوردته الميداني أخذه من « أمثال » يونس عن طريق أحد تلامذته الذين رجع الى كتبهم . أضف الى ذلك أن هذه المقتبسات تعطينا صورة تقريبية للأمثال التى عنى بها يونس ، والنهج الذى اتبعه في معاملتها .

ونستطيع أن نستنبط من هذه المقتبسات أن يونس عنى بعدة أنواع من الأمثال ، ولم يقصر جهوده على واحد منها . وأكثر ما أخذه الميداني منه أمثال اجتماعية تتناول العلاقات بين الأفراد ، بل نستطيع أن نضيق المجال أكثر من ذلك ونصفها بالعائلية ، اذ تعالج أمورا تكون بين الرجل وبنته ، والمرأة وزوجها أو المتقدمين للزواج منها أو ابنائها أو قريباتها (١) . وأمثلة لها بما جاء في تفسير المثل ( جف حجرك ، وطاب شرك ، أكلت دهشا ، وحطبت قمشا ) ، قال الميداني (٢) : « قال يونس بن حبيب : كان من حديث هذين المثلين أن امرأة زارتها بنت أخيها وبنت أختها فأحسنت تزويرهما . فلما كان عند رجوعهما قالت لابنة أخيها : جف حجرك وطاب شرك . فسرت الجارية بما قالت لها عمتها . وقالت لابنة أختها : أكلت دهشا وحطبت قمشا . فوجدت بذلك الصبية وشق عليها ما قالت لها خالتها . فانطلقت بثت الأخ الى أمها مسرورة . فقالت لها أمها : ما قالت لك عمتك ؟ فقالت : قالت لى خيرا ودعت لى . قالت : وكيف قالت لك ما قالت ؟ قالت : قالت : جف حجرك

(١) مجمع الأمثال ١ : ٥٧ ، ١٦٩ ، ١٨١ ، ٢٢٢ ، ٤٩١ ، ٤٩٧ .

(٢) مجمع الأمثال ١ : ١٨١ .

وطاب شرك . قالت : أى بنية ، ما دعت لك بخير ، ولكن دعت بأن لا تشمى ولدا أبدا فيبل حجرك ويغير شرك . وانطلقت الأخرى الى أمها . فقالت لها أمها : ما قالت لك خالتك ؟ قالت : وما عسى أن تقول لى ، دعت الله على ! قالت : وكيف قالت لك ما قالت ؟ قالت : قالت : أكلت دهشا وحطبت قمشا . قالت : بل دعت الله لك يا بنية أن يكثر ولدك فينازعوك فى المال ويقمشوك حطبا .

ويتصل بهذه الأمثال العائلية أمثال أخرى إقليمية ، لا تقتصر على العلاقات فى داخل الأسرة الواحدة أو بين الأفراد بل تتسع فتتعلق بالعلاقة بين جماعة وأخرى . ولم أجد من هذا النوع غير مثل واحد هو ( أسائر اليوم وقد زال الظهر ) ، قال الميدانى (١) : « قال يونس : أصله أن قوما أغير عليهم . فاستصرخوا بنى عمهم فأبطلوا عنهم حتى أسروا وذهب بهم . ثم جاءوا يسألون عنهم فقال لهم المسئول هذا القول . يضرب فى اليأس من الحاجة ، يقول : أنطمع فيما بعد وقد تبين لك اليأس » .

وقريب من هذه الأمثال الاجتماعية الأمثال التاريخية التى تسرد أخبارا كانت شائعة بين العرب يعدونها فى تاريخهم القديم . ولم أعر من هذا النوع الا على واحد هو ( على أهلها تجنى براقش ) . قال الميدانى (٢) : « روى يونس بن حبيب عن أبى عمرو بن العلاء قال : ان براقش امرأة كانت لبعض الملوك ، فسافر الملك واستخلفها . وكان لهم موضع اذا فزعوا دخنوا فيه ، فاذا أبصره الجند اجتمعوا . وان جواربها عبثن ليلة فدخن فجاء الجند . فلما اجتمعوا قال لها نصحاؤها : انك ان رددتهم ولم تستعملهم فى شيء ، ودختهم مرة أخرى ، لم يأتك منهم أحد . فأمرتهم فبنوا بناء دون دارها . فلما جاء الملك سأل عن البناء . فأخبروه بالقصة فقال : على أهلها تجنى براقش . فصارت مثلا » .

(١) مجمع الأمثال ١ : ٢٤٨ ، الرمخشرى ، المستقصى ١ : ١٥٣ .

(٢) مجمع الأمثال ١ : ٤٧٥ .

وتلى الأمثال العادية (١) الأمثال الاجتماعية في الكثرة . وأعنى بالأمثال العادية ما لم يجروه على لسان أحد ، وكانت عبارته المحكمة الموجزة ومضمونه الصادق سببا في شيوعه . وأمثلة له بالمثل ( أضيء لى أقدح لك ) ، قال الميداني (٢) : « قال يونس بن حبيب : زعم بعض العرب أنه هزء ، لأنه إذا قال : أضيء لى ، كيف يقول : أقدح لك ، لأن القادر على القدح لا يتعرض لاضاءة غيره ، كأنه يقول : واسنى مع استغنائي عن ذلك . هذا كلامه » .

وأخيرا هناك الأمثال المأخوذة من الحيوان : من عاداته ، أو القصص والخرافات التي التفت حوله وشاعت بينهم (٣) . ومثالها ( انها الابل بسلامتها ) الذي قال الميداني في شرحه : « قال يونس : زعموا أن الضبع أخذت فصيلا رازما في دار قوم قد ارتحلوا وخلوه . فجعلت تخليه للكلأ وتأتيه فتغاره إياه ، حتى إذا امتلأ بطنه وسمن أتنه لتسستاقه ، فركضها ركضة دقم فاها . فعند ذلك قالت الضبع : انها الابل بسلامتها . يضرب لمن تزدريه فأخلف ظنك » .

وتوجد بعض الأقوال الشائعة ، التي وجدتها في بعض المراجع (٤) ، غير أنني لم أرها عند الميداني ، مثل قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم : الحرب خدعة ، وقولهم : لا دريت ولا أتليت . ولكنني لا أستطيع أن أقطع بل أن أرجح أنها من كتاب الأمثال ، ولذلك لم أعرض لها هنا .

ونستطيع أن نستجلى من بعض الأمثلة التي أوردتها وغيرها مما لم أورد بعض الخطوات التي سار عليها يونس في معالجة الأمثال التي تحدث عنها . فنحن نراه في بعض الأمثال صرح أنه لم يورد

- 
- (١) مجمع الأمثال ١ : ١٠٨ ، ١٥١ ، ٤٣٤ ، ٢ : ١٢٠ . فصل المقال ٩٨ .  
(٢) مجمع الأمثال ١ : ٤٣٤ . الرمزخري : المستقصى ١ : ٢١٣ .  
(٣) مجمع الأمثال ١ : ٥٨ ، ٢ : ١٩١ . فصل المقال ٢٥٦ .  
(٤) ابن دريد : الجمهرة ٣ : ٤٥٩ - ٦٠ . ابن السكيت : اصلاح المنطق ١٢٩ ، ٣٤٧ ، ٣٥٥ . ابن قتيبة : أدب الكاتب ٢٨ .

التفسير من عنده ، ونسب ذلك الى صاحبه . فعزا تفسير واحد من أمثاله الى « بعض العرب » ، وتفسير واحد آخر الى أسستاذه أبي عمرو . وأشار الميداني الى أنه فعل ذلك في تفسير المثل القائل ( أعطنى حظى من شواية الرصف ) ، اذ قال في نهاية ما أورده عن يونس (١) : « هذا ما حكاه يونس عن أبي عمرو » .

ونراه يوجه القسط الأكبر من عنايته الى أصل المثل ، فلا يفغل عنه أبدا ، يليه في الاستثثار بالعناية مضربه ، فهو يختم حديثه عن كل مثل بالظرف الذى يمكن أن يقال فيه . ولكنه أغفل ذلك في مثل المرأة مع ابنتى أخيها وأختها .

وعنى في أمثال بتفسير الألفاظ الغريبة التى فيها ، وأهمل ذلك فى أمثال أخرى . وتكاد الأمثلة التى أوردها تكون كلها من النوع الثانى ، مما يدل على كثرتها . وأمثلة للنوع الأول بالمثل ( بعد الهياط والمياط ) ، قال الميداني عنه (٢) : « قال يونس بن حبيب : الهياط : الصياح . والمياط : الدفع ، أى بعد شدة والأى » .

وصفوة القول أن يونس بن حبيب عنى بالفئات المختلفة من الأمثال ، وخاصة الاجتماعية ؛ وأنه رجع الى من أخذ عنهم اللغة فى تفسيرها ؛ وأنه اهتم بأصل المثل ومضربه ، فكشف عنهما كشفا طيبا .

ونستطيع أن نقول إن حديث يونس عن الأمثال احتفظ بقيمته حتى بعد أن ألف تلاميذه كتباً فى الأمثال ، وأنه كان أحد العمد التى أقام عليها هؤلاء التلاميذ كتبهم . فافترف منه المؤلفون المتأخرون مباشرة أو عن طريق تلاميذه . ولست أعنى بهذا الميداني وحده ، بل أعنى معه الزمخشري . حقا أنه لم يذكر يونس غير مرة فى صدد

---

(١) مجمع الأمثال ١ : ٤٩٧ .

(٢) مجمع الأمثال ١ : ١٠٨ . وانظر ١ : ١٥١ ، ٢ : ١٣٠ . فصل المقال ٩٨ .

تفسير المثل ( لو كان درءا لم تثل ) قال (١) : « عن يونس : يقال : ما بدابتى درء . ولم تثل : لم تنجج . أى لو كان الداء الذى بك درءا — كما زعمت — لم تسلم منه ، انما كان شيئا آخر . يضرب لمن يعظم الأمر الذى يشتكيه ويزيد فى وصفه » . ويختلف هذا القول عما عند الميدانى ، الذى قال (٢) : « قال يونس : لو كان الأمر كما قلت لم تنج ولكنه دون ما قلت . الدرء : الدفع ، وكل ما يحتاج الى دفعه يسمى درءا ، ومنه درء الأعادى أى شرهم . والوال : النجاة . يضرب لمن يتهم فى قومه » . والاختلاف فى نص العبارة الأولى لا معناها ويبدو أن أحدهما تصرف فى عبارة يونس .

ولكن الزمخشري لم يأخذ من يونس تفسير هذا المثل وحده ، بل أخذ تفسير بعض الأمثال الأخرى غير أنه لم يصرح بذلك . وانما يتجلى هذا عند مقارنة كلامه بكلام يونس عند الميدانى . قال الزمخشري مثالا فى المثال (٣) ( أسائر اليوم وقد زال الظهر ) : « وقيل : أصله ان قوما أغير عليهم فاستصرخوا بنى عمهم ، فأبطلوا عليهم حتى أسروا وذهب بهم ، ثم جاءوا يسألون عنهم فقال المسئول ذلك » وقال فى المثال (٤) ( أضىء لى أقدح لك ) : « قيل : هو تهكم ، اذا قال : أضىء لى ، كيف يقول : أقدح لك » . وقد مرت العبارتان بنا دون تغيير عن يونس .

### كتاب معانى القرآن

يمثل هذا الكتاب سابقه فى عدم العثور على مقتبسات صرح أصحابها أنهم أخذوها منه . ولكنه يختلف عنه بعض الشيء . فقد رجحت فى الكتاب السابق أن بعض ما لدى من أقوال منقول عنه ،

(١) المستقصى فى أمثال العرب ٢ : ٢٩٨ .

(٢) مجمع الأمثال ٢ : ١٣٠ .

(٣) المستقصى ١ : ١٥٣ .

(٤) المستقصى ١ : ٢١٣ .

بل كادت بعض القرائن تجزم بذلك . أما هذا الكتاب فلم أجد سبيلا الى ذلك . حقا ، عثرت على عدة أقوال ليونس تعالج جوانب مختلفة من الآيات القرآنية . ولكنها مجردة من كل قرينة تؤدي بنا الى اثباتها في كتاب معاني القرآن أو نفيها منه . وبالرغم من ذلك ، لن أهمل هذه الأقوال ، بل أقوم بدراستها هنا لأنها تلقى أضواء على الطريقة العامة لتناول يونس في دراساته القرآنية .

وأبدأ بالأقوال المتعلقة بمعاني الآيات لقربها من موضوع الكتاب . نستطيع أن نتبين من بعض الأخبار التي بين يدي (١) أن يونس كان في بعض الأحيان ينظر الى جملة القرآن ، ولا يكفي بالنظرة المحلية في آية واحدة ، فيدلى بالحكم الذي يعم الكلمة أنى جاءت . قال : « كل شيء في القرآن ( فاتبعه ) أي طلبه ، و ( أتبعه ) يتلوه » .

ونتبين من خبر آخر أنه اعتمد في تفسيره للمفردات القرآنية على الشعر ، حتى في الأحوال التي كان الظن ألا يعتمد عليه فيها . قال الجرمي (٢) : رأيت يونس النحوي – و مر بحلقة من حلاق المسجد – فقام اليه رجل فسأله عن قول الله جل ذكره : « واني لهم التناوش من مكان بعيد » فقال بيده : التناول . وأنشد :

وهي تنوش الحوض نوثسا من علا  
نوثسا به تقطع أجواز الفلا »

فالمكان الذي سئل فيه ، والهيئة التي سئل عليها ، يجعلانه في حل من الاقتصار على المعنى المجرد ، ولكنه أضاف متطوعا الشاهد الشعري ، الذي نجده في غير الخبر السابق أيضا (٣) .

وتكشف بعض الأخبار الأخرى أن يونس انساق وراء معارفه

---

(١) ابن سلام : طبقات لحوال الشعراء ٤٦ . وانظر المزهري ١ : ٤٥٣ .  
(٢) السيرافي : أخبار النحويين ٥٧ ، وانظر الفاخر للمفضل بن سلمة ١٦٤ .  
(٣) ذيل الأمالي ١٨ .

النحوية ، ووجه عناية خاصة الى ما اتصل بها من أمور قرآنية ، مثل الأدوات .

أورد الزركشى (١) فى معانى ( من ) انها تكون « بمعنى الباء نحو « ينظرون من طرف خفى » حكاه البغوى عن يونس » . وأورد ابن الأنبارى (٢) فى تفسير قوله تعالى : « ويكأنه لا يفلح الكافرون » من يعقوب بن السكيت : « أنشدنى هذا البيت :

( ويك أن من يكن له نشب يحسب

بب ومن يفتقر يعيش عيش ضر )

محمد بن سلام الجمحى عن يونس بوقال : معناه ألم تر . . . واعتمد يونس على معارفه النحوية فى تفسيراته ، كما نرى فيما روى محمد بن سلام عنه حين قال (٣) : « سمعت يونس النحوى يقول فى قوله جل وعلا : « فاليوم ننجيك ببذنك » ننجيك : نجعلك على نجوة من الأرض ، وهى المكان المرتفع . ببذنك : بدرعك . وأنشد لأوس بن حجر :

دان مسف فوق الأرض هيدبه      يكاد يدفعه من قام بالراح  
فمن بنجوته كمن بعقوته      والمستكن كمن يمشى بقرواح »

بل اعتمد على هذه المعارف النحوية فى قراءته أيضا ، وخاصة عندما يدعمها الشعر الفصيح . قال ابن سلام (٤) : « قلت ليونس : كيف تقرأ « وجئتك من سبأ نبأ يقين » ؟ فقال : قال الجعدى ، وهو أفصح العرب :

من سبأ الحاضرين مأرب اذ      يبنون من دون سبيله العرما  
وهو على قراءة أبى عمرو ويونس » .

(١) البرهان ٤ : ٤٢٠ .

(٢) شرح التصانيد السبع الطوال ٣٥٦ .

(٣) ذيل الأمالى والنوادر ١٨ .

(٤) طبقات فحول الشعراء ١٠٦ . ابن دريد : جمهرة اللغة ٣ : ٢٩٢ .

وطبيعى أن يلتقط ما فى الآيات من مسائل نحوية ويناقشها ،  
كما روى عنه سيبويه (١) : « وأما قوله عز وجل : « وأسروا النجوى  
الذين ظلموا » فإنه يجيء على البدل أو كأنه قال : انطلقوا ، ف قيل  
له : من ؟ فقال : بنو فلان . فقوله : « وأسروا النجوى الذين  
ظلموا » على هذا فيما زعم يونس . »

وغير بعيد أن يكون تناول بعض القراءات بالتعليل . قال  
سيبويه (٢) : « سمعنا بعض العرب يقول : الحمد لله رب العالمين ،  
فسألت عنها يونس ، فزعم أنها عربية . ويؤيد ذلك المكانة السامية  
التي كان يشغلها يونس فى علم القراءة ، قال الجاحظ (٣) : « ثم يكن  
فى هذه الأمة بعد أبى موسى الأشعرى أقرأ فى محراب من موسى  
ابن سيار ثم عثمان بن سعيد بن أسعد ، ثم يونس النحوى ، ثم  
المعلى » .

ويبدو أن يونس لم يكن من الملتزمين بالتفسير المأثور بل كان  
يفسر برأيه أحيانا . فنحن لم نجده يورد أى سند فى أقواله السابقة  
ونجد بعضها ذا صبغة نحوية تدل على صدورها من عنده . ولعل  
الخبر التالى يؤيد هذا الاستنباط . قال أبو عبيدة عن يونس (٤) :  
« كنت مع أبى عمرو بن العلاء عند بيت الله الحرام . فجاءنا مقاتل  
ابن سليمان فجعل يسأل أبا عمرو بن العلاء عن تفسير القرآن فأكثر .  
ثم قال له : ما معنى قوله تعالى « مثل الجنة التى وعد المتقون »  
فقال أبو عمرو : لا أدرى . فقلت له : أضجرت الشيخ من كثرة  
ما تسأل ، أراد صفة الجنة التى وعد المتقون . فقال مقاتل  
لأبى عمرو : هو كما قال ؟ فقال : ان كان سمع فخذ عنه . فقال

---

(١) الكتاب ١ : ٢٣٦ . وانظر ١ : ١٧٣ ، ٢٤٩ ، ومجاز القرآن ٢ : ٢١ .

(٢) الكتاب ١ : ٢٤٨ .

(٣) البيان والتبيين ١ : ٣٦٨ .

(٤) مجالس العلماء ٦٥ .

مقاتل : ما أفتيتني ، سمعت (١) . فقال : لو لم أسمع من الثقات ما أفتيتك أو كلام مثل نحوه .

وبين يدي خبر آخر يدل على أن يونس روى بعض تفسيره عن بعض المشهورين من المفسرين . روى محمد ابن اسحاق (٢) عن يونس عن الزهري في قول الله عز وجل : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » معناه ما الذي علمناه شعر وما ينبغي له أن يبلغ عنا شعرا .

### كتاب اللغات

عنى العرب في هذا الحقل العلمى بنوعين من التأليف : يقتصر الأول منهما على « اللغات في القرآن » ، ويمد بصره الى ما يحتوى عليه الكتاب الكريم من الفاظ مأخوذة من لهجات القبائل المتفرقة في شبه الجزيرة العربية ، وقد يديم النظر في بعض هذه الألفاظ محاولا أن يتعرف على أصولها البعيدة ، ولو كانت خارج شبه الجزيرة . ويتسع النوع الثانى فلا يقيد نفسه بالمجال القرآنى بل ينظر الى اللهجات القبلية كلها ، أو القبائل الفصيحة ، على أقل تقدير . وقلما يأبه هذا النوع بالتعمق الى الأصول غير العربية .

فإذا كان كتاب يونس من النوع الأول لم يكن رائدا له . فقد سبقه اليه عبد الله بن عباس ، وأكثر من الحديث فيه ، حتى جمعت أقواله في رسالة صغيرة ، غالبت الأزمان ، ووجدت من يطبعها في عصرنا هذا . ولا نستطيع أن نتمسك بالعنوان فنقطع بأن كتاب يونس من النوع الثانى ، لأن بعض الكتاب كانوا يختصرون عناوين الكتب التى يذكرونها ، فربما كان العنوان الذى بين أيدينا مختصرا .

---

(١) يريد لم تفتنى بل رويت ما سمعت .

(٢) السيرا فى ٥٦ .

واذا كان الكتاب من النوع الثانى حاز يونس شرف السبق الى التأليف فيه ، فهو أول لغوى ينسب اليه كتاب من هذا النوع . ولعلنا نجد بعض الاطمئنان الى أن الكتاب من هذا النوع حين نرى ما بين أيدينا من أقوال ليونس قلما يتعرض للغات فى القرآن ، بينما كثير منها يعالج اللغات القبلية . وقد تجلّى لنا ذلك فيما فعل فى كتاب النوادر . وتجلّى لنا أنه لم يقتصر على ظاهرة أو اثنتين من الظواهر اللغوية فى هذا الصدد ، بل تنبه الى ظواهر كثيرة ورصدها . وأضفت الى ذلك أن الرجل رصد ظواهر غير التى تحدثت عنها الا أننى لم أجد من القرائن ما يجعلنى أضعها فى النوادر .

كل هذا يمنحنا صورة ما عن هذا الكتاب ، الذى لم أعر على اقتباس واحد صريح منه ، ولا أستطيع أن أميل فى أى قول عثرت عليه الى أنه منه ، لأن الرجل كان يهوى الحديث عن اللغات القبلية ، ويث هذا الحديث فى كتبه المختلفة .

## الفصل الثاني

### الكتب غير المعروفة

كان حديثي في الفصول السابقة عن الكتب التي نسبها القدماء إلى يونس بن حبيب . وقد حاولت - بالرغم من ضياعها - أن أؤلف لها صورة تجعلنا قادرين على التعرف عليها ، وتمييز أهدافها واتجاهاتها وخصائصها ، ومنحها مكانتها في زمنها ، ولكن بقيت كلمة يجب أن يقال عن مؤلفات الرجل .

### الموازنة بين الشعراء

يقال بروكلمن في ترجمته ليونس بن حبيب (١) : « له موازنة بين هدامي الشعراء ، ذكرها ياقوت في الإرشاد ٧ : ٣١٠ » .

وقد فهمت من هذا الكلام أن يونس ألف كتاباً في الموازنة بين الشعراء القدماء ، وربما فعل ذلك قارئ بروكلمن . ولكننا حين نرجع إلى المصدر الذي استقى منه بروكلمن ، أعنى معجم الأدباء لياقوت (٢) ، نكتبين أن هذا الفهم غير صحيح ، إذ لم يصرح ياقوت بأن يونس ألف مثل هذا النسوع من الكتب ، ولا أوماً إلى ذلك . وإنما أورد ياقوت عدة أخبار تحكى أسئلة قدمت إلى يونس عن رأيه في بعض الشعراء الجاهليين والأمويين ، والموازنة بينهم ، وردوده عليها .

مثال ذلك ما رواه محمد بن سلام قال : « سألت يونس النحوي عن أشعر الناس ، فقال : لا أومى إلى رجل بعينه ، ولكنى أقول :

(١) تاريخ الأدب العربي ٢ : ١٣١ ( الترجمة العربية ) .

(٢) ٢٠ : ٦٥ .

امرؤ القيس اذا ركب ، والمنايفة اذا رهب ، وزهير اذا رغب ،  
والأعشى اذا طرب .

### القياس في النحو

كذلك قال بروكلمن (١) : « وقيل : انه صنف كتاب القياس في  
النحو » . ولكنه لم يذكر المصدر الذي اعتمد عليه في هذا القول ،  
ولم أعثر أنا على من أشار الى ذلك . واعتقد أن التأليف في القياس  
في عصر يونس غريب ، وغير متوقع . فقد تنبه الناس الى القياس ،  
وأكثروا من التحدث عنه في الجيل التالي ليونس ، أي جيل  
تلاميذه ، بعد ما وقع الخلاف بين العلماء من البصرة والكوفة ، وأخذ  
الناس يحسون أن كلا من الفريقين يختلف عن الآخر في منجاء  
ونهجه . ووصل الأمر الى أن شارك الشعراء في الحديث عن  
الاقيسة النحوية (٢) .

---

(١) تاريخ الأدب العربي ٢ : ١٣٠ .

(٢) نزهة الألباء ٥٤ - ٥٥ .



## البَابُ الثَّالِثُ

المدارس

ذكرت مراراً في الصفحات السابقة أن يونس بن حبيب درس « علوم العربية » أو عني بها ، ولم أحاول أن أحدد واحداً معيناً من العلوم . وقد استخدم القدماء أنفسهم عبارة « علم العربية » ، فأطلقوها على اللغة والنحو . ولكن هذا التصور — في اعتقادي — قاصر ، لا يتسع لكل ما يحدث فيه علماء هذا العصر ، من « علماء العربية » .

فالعصر الذي عاش فيه يونس عصر مبكر ، كان « علماء العربية » يعنون فيه بأشياء متعددة ، ولكنها جميعاً تستهدف إبراز صورة المجتمع العربي الخالص في جاهليته وإسلامه : لغته ، أدبه ، حياته ، تقاليده ، فيمه : وهي جميعاً تعتمد على ما بقي بين يديها من آثار هذا المجتمع من أجل بلوغ هدفها ، ولم تجد من هذه الآثار غير « الشعر » . وهي جميعاً تنظر إلى الشعر نظرة واحدة ، وتعامله معاملة واحدة ، وتسلك طريقة واحدة في استخلاص ما يعنينا من حقائق منه .

فقد كان الشعر عندهم (١) : « ديوان العسرب » ، به حفظت الأنساب وعرفت المآثر ، ومنه تعلمت اللغة ، وهو حجة فيما أشكل من غريب كتاب الله ، وغريب حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وحديث صحابته والتابعين » ولذلك كان الشعر البرهان على صحة ما يقال ، ويدعم الأخبار التي يرد فيها (٢) .

فلا عجب أن تتداخل اهتمامات هؤلاء الدارسين « للمجتمع

(١) السيوطي : المهر ٢ : ٢٣٥ من أحمد بن فارس . وانظر ابن سلام ٢٢ .

(٢) عبيد بن شربة : أخباره ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٤٩ ، ٤٠٠ ، وغيرها .

العربي « ولا تتضح اختصاصاتهم وضوحا كافيا ، يجعلنا نعطي كلا منهم صفة واحدة . فاننا حين نحاول ان نصف ابن الكلبي وابا عبيدة والمدائني تستبد بنا الحيرة ، اذ نجد فيما كتبوا تاريخا ولغة وادبا ..

وقد وقع القدماء أنفسهم في مثل حيرتنا ، ولم يتخلصوا منها الا بابتكار وصف عام مبهم أطلقوه عليهم ، فهم عندهم «أخباريون» ، يجمعون أخبار العرب المتنوعة الاتجاهات والطوايع ، والتي لا تجعل من أحدهم مؤرخا خالصا ، أو لغويا محضا ، أو ناقدا بحتا أو ما الى ذلك .

واذا كان يونس بن حبيب لم يتسع الحقل الذي عمل فيه اتساعه عند الرجال الذين ذكرتهم ، الا أن حقله كان على شيء من الاتساع ، وكان ما عني بالاشراف عليه ورعايته في هذا الحقل على شيء من التنوع .

واذا كانت اهتمامات هؤلاء الرجال من التداخل بحيث لم يرض القدماء بالفصل بينها ، ووضع الحدود المميزة لها ، وأطلقوا عليها اسما جامعا ، الا أنني أؤثر ألا أتبع القدماء في ذلك وأؤثر محاولة الفصل بين الاتجاهات المختلفة التي سار فيها يونس ، تيسيرا على القارئ ، وتوضيحا للصورة ، وتمهيدا لاعطاء كل جانب قدره من جوانب الرجل ، بالرغم من إيماني العميق بأن جميع هذه الجوانب لرجل واحد : فهي مترابطة ، بل تتواشج وتتداخل وتمتزج فتنتهي بأن تكون ذلك الرجل .

وأؤثر أن أجمع هذه الجوانب في فئتين : تلتصق أولاهما بالشعر : ترويه ، وتفسره ، وتنقده ؛ فصار الشعر بذلك مادتها وهدفها . وهي لذلك دراسة قد نسميها بالأدبية . أما الفئة الثانية فقد يليق بها اسم الدراسة اللغوية ، إذ تستهدف اللغة والنحو . حقا أن هذه الدراسة تعتمد على الشعر أيضا ، ولكنه مادتها حنوب ، أما هدفها فالكشف عن المسالك اللغوية التي سار فيها العرب في تفاهيمهم .

# الفصل الأول

## الدراسات الأدبية

### الرواية

كان كل شيء في حياة يونس بن حبيب ، والمدينة التي عاش فيها ، والعصر الذي كان أحد أبنائه ، يدعو إلى البحث عن الشعر العربي ، وحفظه ، وروايته .

فقد أخذ عن جماعة من الأعراب ، كان بعضهم يقول الشعر مثل أبي مهدية ، أن لم يكونوا كلهم من ناظميه . وأخذ عن جماعة من العلماء عرفوا برواية الشعر مثل أبي عمرو بن العلاء وأبي الخطاب الأخفش . وضمت حلقاته جماعة كبيرة من الشعراء ، ومن العلماء بالشعر مثل خلف الأحمر ، وهو من أشهر رواة الشعر . واتصل بجماعة من الشعراء مستفيدا منهم ، مثل رؤبة وذي الرمة والفرزدق . واتصل به جماعة من الشعراء مستفيدين منه مثل مروان بن أبي حفصة .

لا عجب إذن أن يستجيب يونس لهذه الدعوة ، ويعنى برواية الشعر . فأخذ الشعر القديم عن شيوخه ، قال سيبويه (١) : « قال عمرو بن كلثوم :

صددت الكأس عنا أم عمرو      وكان الكأس مجراها اليمين

---

(١) الكتاب ١ : ٢٠١ .

أى على ذات اليمين . حدثنا بذلك يونس عن أبى عمرو ،  
وهو رأيہ » . وأخذه أيضا عن التقى منهم من العرب . قال  
سيبويه (١) : « زعم يونس أن العرب تنشد هذا البيت لهدية  
ابن خشرم :

فان تك فى أموالنا لا نضق بها

ذراعا ، وان صبر فنصبر للصبر »  
وقال أيضا (٢) : « زعم يونس أن ناسا من العرب يقولون :  
انصب للمنية تعريضهم رجالى أم هم درج السيول »  
أما الشعر المعاصر له فأخذه من أفواه ناظميه . قال سيبويه (٣) :  
« يقوى ذلك أن يونس وعيسى جميعا زعما أن رؤبة كان ينشد  
هذا البيت نصبا :

✽ فيها ازدهاف أيما ازدهاف ✽

وقال أيضا (٤) : « زعم يونس أنه سمع الفرزدق ينشد :  
كم عمة لك يا جرير وخالة فدعاء قد حلبت على عشارى .  
شفارة تقذ الفصيل برجلها فطارة لقوادم الإبكار  
وتدلنا الأبيات الباقية لدينا من رواية يونس أنه عنى بعصور  
الاستشهاد اللغوى كلها ، وبالفصحاء من الشعراء على اختلاف  
مرااتبهم واتجاهاتهم . فقد روى أبياتا من الشعر الجاهلى ، بعضها  
من نظم كبار شعراء الجاهلية كأصحاب المعلقات ومن فى مرتبتهم ،  
مثل امرئ القيس وعمرو بن كلثوم والنابغة الذبياني والأعشى وعبيد

(١) الكتاب ١ : ١٢١ . وانظر ٧٧ ، ١٤٠ ، ٢٥٠ .

(٢) الكتاب ١ : ٢٠٧ . وانظر ٢٤٢ . والبيت لابراهيم بن هرمة . انظر ٢٠٦ .

(٣) الكتاب ١ : ١٨٢ . وانظر ١٦١ .

(٤) الكتاب ١ : ٢٥٣ .

ابن الأبرص . إقال محمد بن سلام الجمحي (١) : « سألت يونس عن قول الله تعالى : « إنما أنت من المسحرين » فقال : من المعلنين ، وأنشد لامرئ القيس :

عصافير وذبان ودود      ونسحر بالطعام وبالشراب «  
وروى أيضا لجماعة من أقدم من نعرف من شعراء الجاهلية مثل المستوغر بن ربيعة ، والصعاليك مثل عروة بن الورد ، وسكان الحضر مثل عدى بن زيد العبادي ، والنساء مثل الخرنق اخت طرفة بن العبد . قال سيبويه (٢) : « قال عروة الصعاليك :

سقوني الخمر ثم تكنفوني      عسداة الله من كذب وزور  
إنما شتمهم بشيء قد استقر عند المخاطبين . وقال النابغة :  
لعمري وما عمري على بهين      لقد نطقت بطلا على الأقارع  
أقارع عوف لا أحاول غيرها      وجوه قرود تبسفي من تجادع  
وزعم يونس أنك - أن شئت - رفعت البيتين جميعا على الابتداء ،  
تضمير في نفسك شيئا لو أظهرته لم يكن ما بعده إلا رفعا .

ويبلغ الشعراء الاسلاميون الذين روى لهم أشعارا ضعف الجاهليين ، ويزداد العدد إذا أضفنا اليهم المخضرمين . وقد روى للفحول منهم مثل لبيد والحطيئة والنابغة الجعدي وأبي ذؤيب الهذلي وجريير والأخطل وكثير والراعي وذو الرمة والعجاج وأبي النجم ، فضلا عن رؤبة والفرزدق اللذين أولاهما من العناية مالم يوله لأحد ، واعتمد على شعرهما اعتمادا لا يماثله اعتمادهما على شعر غيرهما . قال سيبويه : « أنشدنا يونس لجريير :

إياك أنت وعبد المسيح      أن تقربا قبلة المسجد  
أنشدناه منصوبا وزعم أن العرب كذا تنشده » (٣) .

(١) المفضل بن سلمة : الفاخر ١٦٤ .

(٢) الكتاب ١ : ٢٥٢ .

(٣) الكتاب ١ : ١٤٠ .

وروى لغير الفحول من الاسلاميين أيضا ، دون أن يقتصر على  
فئة معينة منهم . فقد روى لشعراء الغزل مثل جميل بثينة ؛  
وشعراء الهجاء مثل اللعين المنقري ، ويزيد بن ربيعة بن مفرغ  
الحميري ، وجريير بن خرقاء العجلي ؛ وشعراء المدح مثل نصيب  
وعبد الله بن همام السلولي ؛ وشعراء العواطف الشخصية مثل هذبة  
ابن الخشرم وأبي الأسود الدؤلي ؛ وغيرهم من الخاملين مثل  
الجارود بن أبي سبرة وابن رباح الشارزنجي وأبي دواد الرؤاسي .  
قال سيبويه (١) : « قال الهذلي :

فقلت : تحمل فوق طوقك انها مطبعة من ياتها لا يضيرها  
هكذا أنشدناه يونس » .

وامتد نطاق من روى يونس شعرهم واستشهد بهم حتى شمل  
بعض مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، مثل ابراهيم  
ابن هرمة ، الذي عده النحويون ساقية الشعراء وآخر من يستشهد  
بهم . أما العباسيون الخالصون الذين سموا بالمولدين فلم أجدهم  
يونس يروي لهم شيئا ، بالرغم من اتصال بعضهم به كمروان  
ابن أبي حفصة .

واذا نظرنا في قائمة الشعراء الذين روى لهم يونس تجلت لنا  
بعض الظواهر التي نستطيع أن نرصدها على النحو التالي :

كان القسط الأكبر من عناية الرجل موجهة الى الشعراء  
الاسلاميين ، وخاصة من عاش منهم في العهد الأموي . فعدد  
الجاهليين الخالص الذين روى لهم قليل جدا ، ولا يخرج عن نطاق  
الفحول غير هني بن أحمر الكناني والخرتق والمستوغر . والمخضرمون

---

(١) الكتاب ١ : ٤٢٨ .

روى لأكابريهم ما عدا كعب بن زهير وحسان بن ثابت اللذين لم أجد شعرا لهما عنده . فاذا انتقلنا الى العصر الأموي لم نكد نجد فحلا لم يرو له شيئا .

وبرز بين الأمويين رؤبة والفرزدق خاصة . أما رؤبة فقد كثر حديثي عنه ولا أحب أن أعود الى ذلك . وأما الفرزدق فقد بلغ من اهتمام يونس به أن اضطر الى الاهتمام بجماعة من الشعراء ما كان يأبه لهم لولاه . فقد كانوا على اتصال ما بالفرزدق ، أو وقعت بينهم أحداث مشتركة ، أرغمت الرجل على رواية بعض اشعارهم .

فلم أجد عنده لجريز بن خرقاء العجلي الا ما رد به على الفرزدق . قال ابن سلام (١) : « روى عن يونس أن الفرزدق لما قال :

تصرم منى ود بكر بن وائل      وما خلت دهرى ودهم يتصرم  
قوارص تأتينى فيحتقرونها      وقد يملأ القطر الاناء فيفعم  
— وكان قد نزل عليهم حين هرب من زياد — فقال جريز  
ابن خرقاء يجيبه :

لقد بوائك الدار بكر بن وائل  
وردت لك الأحشاء اذ أنت مجرم  
ليالى تمنى أن تكون حمـ~~ـ~~ـامة  
بمكة يفشأها الستار المحـ~~ـ~~ـرم  
فان تنأ عنا لا تضرنا وان تعـ~~ـ~~ـد  
تجدنا على العهد الذى كنت تعلم «

ولم أجد لنصيب غير الأبيات التى قالها للخليفة الأموي حين غضب من الفرزدق . قال المرتضى (٢) : « أبو عبيدة عن يونس قال :

(١) المرتضى : الأمالى ١ : ٣٠٤ .

(٢) الأمالى ١ : ٦٠ .

دخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك ، وعنده نصيب الشاعر .  
فقال له سليمان : أنشدني ! فأنشده . . ( أبياتا في الفخر ) فاسود  
وجه سليمان وغازله فعله ، وكان يظن أنه ينشده مديحا له . فلما رأى  
نصيب ذلك قال : ألا أنشدك ؟ فأنشده :

أقول لركب قافلين لقيتهم  
قفاذات أوشال ومولاك قارب :

قفوا خبروني عن سليمان اننى  
لمعروفه من أهل ودان طالب  
فعاجوا فائنوا بالذى أنت أهله  
ولو سكتوا أثنت عليك الحقائق

فقال له سليمان : أنت أشعر أهل جلدتك . وفى بعض الأخبار  
أن الفرزدق قال ذلك فى نصيب حين سأله عنه سليمان « .

بل بلغ من فرط عنايته بالفرزدق أن عنى بمن حاول أن يكون  
على صلة به ولم يفلح . روى ابن سلام (١) : « قال اللعين :

|                        |                         |
|------------------------|-------------------------|
| سأحكم بين كلب بنى كليب | وبين القين قين بنى عقيل |
| فان الكلب مطعمه خبيث   | وان القين يعمل فى سفل   |
| وقد حسر البعيث واقعدته | لثيمات المنباخر والسبال |
| ويترك جده الخطفى جرير  | ويندب حاجبا وبنى عقيل   |

قال ابن سلام : وسمعت يونس يقول : فلم يلتفتا لفته ، وأراد  
أن يذكره فرفعه ذلك ، فقال :

فما بقيا على تركتماني ولكن خفتما صرد النبال « .

واذا نظرنا فى الأشعار الباقية بين أيدينا من رواية يونس نجد  
أنها تمنحنا أسبابا متعددة حدث به الى العناية بها . وأول هذه

(١) الطبقات ٣٤٢ .

الأسباب الاستشهاد بها في ميداني النحو واللغة . فقد كان كثير من هذه الأشعار يضم ظواهر لغوية خاصة لفتت نظر ذلك الرجل المعنى برصد هذه الظواهر ، فعنى بها وتتبعها ومحصلها . وعندما أحس سيبويه منه ذلك اتخذ منه أحد مراجعه في الشواهد . قال البغدادى (١) : « فاعتمد ( سيبويه ) على شيوخه ، ونسب الانشاد اليهم ، فيقول : أنشدنا ، يعنى الخليل ؛ ويقول : أنشدنا يونس . . » . ومثال ذلك ما رواه سيبويه قال (٢) : « نظير هذا النصب من الشعر قول الخرنق :

لا يبعـدن قـومى الدين هم      سم العداة وآفة الجـزر  
النازلين بكل معتـرك      والطيبون معـساقد الأـزن  
فرع الطيبين . . وزعم يونس أن من العرب من يقول :  
النازلون بكل معتـرك      والطيبين

فهذا مثل والصابرين في قوله تعالى : « والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس » (٣) .

وكان سبب عنايته ببعض الأشعار اتصالها ببعض الأخبار التى يعنى بها ، مؤيدة لها ، ومنتمة لوقائعها ، وموضحة لأحداثها . واذ كان يونس شديد الاهتمام بالأخبار كان غير عجيب أن يعنى بهذه الأشعار وفق ما شاع عند العرب من مناهج وتصورات . مثال ذلك ما رواه الجاحظ عن أبى عبيدة قال (٤) : « حدثنى يونس قال : لما بنى فيل مولى زياد داره وحمامه بالسبابة عمل طعاما لأصحاب زياد ، ودعاهم الى داره وأدخلهم حمامه . فلما خرجوا منه غداهم ثم ركب وغبر في وجوههم . فقال أبو الأسود الدئلى : لعمر أبىك ما حمام كسرى على الثلثين من حمام فيل

(١) خزانة الأدب ١ : ٢٣٣ .

(٢) الكتاب ١ : ٢٤٦ .

(٣) الحيوان ٧ : ٨٣ .

وقال الجارود بن أبي سبرة :

وما أرقاصنا خلف الموالى كسنتنا على عهد الرسول «

ونستطيع أن نتبين فئة ثالثة من الشعر كان الإعجاب هو الذى ساق يونس الى حفظها وروايتها . ومثالها ما حكاه ابن خلكان (١) :

« قال يونس : تقول العرب : فرقة الأحباب سقم الألباب . وأنشد :

شيئان لو بكت الدماء عليهما عيناى حتى يؤذنا بذهاب  
لم يبلغا المعشار من حقيهما شرح الشباب وفرقة الأحباب «

ويتجلى لنا فى هذه الأشعار أيضا أن أكثرها أبيات مفردة ، أو بيتان . ولا نعجب كثيرا لغلبة هذه الظاهرة على ما أورده سيبويه منها ، لأنه فعل ذلك اذ عدها شواهد . ولم يعن النحويون فى شواهدهم عادة الا بالبيت الذى يمثل القاعدة النحوية التى يتحدثون عنها . ونستدل من هذا أن الاقتصار على البيت والاثنين ربما كان من يونس نفسه فى أثناء علاجه النحو ، وربما كان من سيبويه الذى اختار من رواية يونس ما فيه الشاهد النحوى ، وان كنت أميل الى الظن الاول .

وأما مرويات يونس فى غير كتاب سيبويه فلا تقتصر على الأبيات ، بل تطول وتصير مقطوعات ، وخاصة فى طبقات فحول الشعراء لابن سلام . روى عن يونس مرة (٢) : « أن يزيد بن ربيعة ابن مفرغ كان رجلا من يحصب ، وكان عديدا لبنى أسيد بن أبى العيص بن أمية ، وكان منزله بالبصرة ، وكان شريرا هجاء للناس . فصحب عباد بن زياد - وعباد يومئذ على سجستان ، عاملا لعبيد الله بن زياد ، وعبيد الله يومئذ على البصرة لمعاوية - فهجا ابن مفرغ عبادا ، فبلغه . وكان على ابن مفرغ دين ، فاستعدي

(١) ٢ : ٤١٧ . ابن العماد : شذرات الذهب ١ : ٢٠١ .

(٢) الطبقات ٥٥٤ .

عليه . فباع عباد ماله في دينه وقضى الغرماء . وكان فيما بيع عليه غلام يقال له برد ، وجارية يقال لها أراكة ، فقال :

|   |   |
|---|---|
| أصرفت حبلك من أمامه<br>تركى سعيدا ذا الندى<br>وتبعت عبيد بني عنلا<br>جاءت به حبشية<br>من نسوة سود الوجو<br>وشريت بسردا ، ليتنى<br>يا هامة تدعو الصدى<br>العبد يقرع بالعصا<br>والريح تبكى شجوها<br>ورمقتها فوجدتها | من بعد أيام برامسه<br>والبيت ترفعه الدمامه<br>ج ، تلك أشرط القيامة<br>سكاء تحسبها نعامه<br>ه ترى عليهن الدمامه<br>من بعد برد كنت همامه<br>بين المشقر واليمامه<br>والحر تكفيه الملامه<br>والبرق يلمع في الغمامه<br>كالضلع ليس له استقامه |
|---|---|

وأمثال هذه المقطوعة ، وما يقل عنها ، وما يزيد ، غير قليل في الطبقات . ونشعر في بعضها أن يونس ربما روى القصيدة كلها ، فاقترص ابن سلام على ما أورده منها . ولعل الخبر التالي يبين أن يونس روى بعض القصائد المفرطة في الطول . قال السيوطي (١) : « زعم يونس أن العجاج أشعر أهل الرجز والقصيد . وقال : إنما هو كلام ، وأجودهم كلاما أشعرهم ، والعجاج ليس في شعره شيء يستطيع أحد أن يقول : لو كان مكانه غيره لكان أجود . وذكر أنه صنع أرجوزته :

\* قد جبر الدين الاله فجبر \*

في نحو من مثنى بيت ، وهى موقوفة مقيدة ، ولو أطلقت قوافيها وساعد فيها الوزن لكانت منصوبة كلها .

وكثرة الأخبار بين رؤية والفرزدق ويونس ، وتحديثه عنهما ، واستشهاده بشعرهما ، وحكايته أخبارهما ، تجعلنى أميل الى أنه

(١) المزهري ٢ : ٤٨٤ .

كان يحفظ كثيرا من شعرهما ان لم أقل ديوانيهما . ولكننى لم أعثر  
فى أى من المراجع التى أفدت منها على أنه روى ديوانيهما ، بل لم أعثر  
على من ذكر أنه روى ديوان شاعر جاهلى أو اسلامى . ويبدو لى أن  
يونس لم يكن ممن عنوا برواية الشعر لذاته ، وانما كان اهتمامه به  
من أجل ما يحتوى عليه من لغة ونحو وأخبار ، فروى منه ما اتصل  
باهتماماته هذه ، ولم يأبه لرواية ديوان كامل لشاعر مثل أستاذه  
أبى عمرو بن العلاء أو تلاميذه مثل الأصمعى وأبى عبيدة وخلف  
الأحمر . ولكن هذا لم يمنعه أن يكون له نظر فى الشعر يسر له نقد  
بعض الشعراء كزهير بن أبى سلمى والثابتة الجعدى وعبيد الله  
ابن قيس الرقيات .

وقد أثار بعض ما رواه يونس عواصف من النقد ، والخصومة  
بين الدارسين والأدباء . فقد روى محمد بن سلام (١) عن يونس  
الآيات التالية التى نسبها الى المستوغر بن ربيعة بن كعب التميمى ،  
الذى عده من أقدم الشعراء العرب الموثوق من وجودهم :

|                            |                            |
|----------------------------|----------------------------|
| ولقد سئمت من الحياة وطولها | وازددت من عدد السنين مئينا |
| مئة أتت من بعدها مئتان لى  | وازددت من عدد الشهور سنينا |
| هل ما بقا الا كما قد فاتنا | يوم يكر وليسلة تحدونا      |

وانتهز الدكتور طه حسين (٢) هذه الفرصة السانحة وطعن  
ابن سلام طعنة قاصمة . فقد رأى فيه واحدا من أكبر العلماء  
الذين شعروا بما وقع فى الشعر من انتحال ، وتتبع الشعر المنتحل ،  
ونبه عليه . وبالرغم من ذلك ، غفل عن بعض هذا الشعر وانخدع  
به ، فوثق به وما كان مستحقا لهذه الثقة . والحق مع الدكتور  
طه ، فواضح على الآيات أنها من الشعر الشعبى ، الذى كانت

(١) الطبقات ٢٩ .

(٢) فى الأدب الجاهلى ١٥٥ . وانظر طه احمد ابراهيم : تاريخ النقد الأدبى

عند العرب ٨٧ .

تزخر به القصص الدائنة بين العرب يسمرون بها في لياليهم ، وتدور حول المعمرين ، كما يكشفها كتاب أبي حاتم السجستاني . ويؤيدنا في هذه النظرة الأثر الذي تركته اللهجة القبلية في الفعل ( بقا ) إذ لم يأت على اللغة الفصيحة ( بقى ) .

كذلك خالف يونس بعض العلماء في نسبة بعض ما رواه من شعر . فقد نسب الحائية المشهورة الى عبید بن الأبرص . قال ابن سلام (١) : « أخبرني يونس بن حبيب قال : قيل لدى الرمة : من أحسن الناس وصفا للمطر ؟ فذكروا قول عبید :

دان مسف فوق الأرض هيدبه      يكاد يدفعه من قام بالراح  
فمن بنجوته كمن بمحفله      والمستكن كمن يمشى بقرواح  
فجعلها يونس لعبید ، وعلى ذلك كان اجتماعنا ، فلما قدم المفضل صرفها الى أوس بن حجر . »

ويتضح من قول ابن سلام أن يونس لم ينفرد بقوله بل كان تابعا فيه لجماعة أهل البصرة ، فلما جاء المفضل الكوفي صرفهم عن رأيهم . ويبدو أن غلبة رأي المفضل كانت تامة بحيث أوقعت بعض العلماء في الخطأ ، إذ عمم هذا الرأي وشمل به يونس نفسه . قيل في ذيل الأمالي والنوادر (٢) : « محمد بن سلام قال : سمعت يونس النحوي يقول في قوله جل وعلا : « فاليوم تنجيك ببذنك » تنجيك : نجعلك على نجوة من الأرض ، وهي المكان المرتفع . ببذنك : بدرعك . وأنشد لأوس بن حجر :

دان مسف . . . . . »

ونسب ميمية للنايفة الجعدى فخالفه تلميذه أبو عبيدة . قال

---

(١) الطبقات ٧٦ .

(٢) ١٨ .

ابن سلام (١) : « قلت ليونس : كيف تقرأ : « وجئتك من سبأ  
بنبأ يقين » فقال : قال الجعدي ، وهو أفصح العرب :

من سبأ الحاضرين مأرب اذ ينون من دون سبيله العرما

— وهو على قراءة أبي عمرو ويونس — فجعل يونس القصيدة  
للجعدى . وسمعت أبا الورد الكلابى سأل عنها أبا عبيدة فقال :  
لأمية . ثم أتينا خلفا الأحمر فسألناه فقال : للنابغة وقد يقال  
لأمية . ويبدو من العبارة الأخيرة أن خلفا يرجح قول أستاذه  
يونس .

وقطن يونس الى أن من أسباب الاختلاف في نسبة بعض الأبيات  
ما تعودده الشعراء من التمثل في قصائدهم ببعض أبيات السابقين  
عليهم دون أن يقصدوا الى سرقتها أو اخفاء أمرها على القارىء .  
قال ابن سلام (٢) : « أخبرنى خلف أنه سمع أهل البادية من  
بنى سعد يروون بيت النابغة للزبرقان بن بدر . فمن رواه للنابغة  
قال :

تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتتقى مريض المستنفر الحامى  
ومن رواه للزبرقان بن بدر قال :

ان الذئاب ترى من لا كلاب له وتحتفى مريض المستنفر الحامى  
.. وسألت يونس عن البيت فقال : هو للنابغة ، أظن الزبرقان  
استزاده في شعره كالتمثل حين جاء موضعه لا مجتلبا له .

واذا كانت بعض مرويات يونس أثارت خلافا كبيرا ، فان بعض  
أحكامه المتصلة بالرواية أثارت خلافات أخرى ، بل ضل بعضها  
العلماء آمادا طويلة . فقد كان أحد الذين أطلقوا القول أن لبيد  
ابن ربيعة الصامري سكت عن الشعر بعد الاسلام . قال

(١) الطبقات ١٠٦ .

(٢) الطبقات ٤٨ .

ابن خلكان (١) : « قال يونس : لم يقل لبيد في الاسلام سوى بيت واحد ، هو :

الحمد لله اذ لم يأتني اجسلى  
حتى لبست من الاسلام سربالا »

ويدور حول هذا القول خلاف قديم وحديث . أما الخلاف القديم فيتناول البيت الوحيد الذى قاله لبيد في الاسلام ، وهل هو ما رواه يونس أو غيره ؛ والبيت الذى رواه يونس : هل هو للبيد حقا أو لغيره . فقد خالف بعض الرواة يونس (٢) ، وقالوا ان البيت الذى قاله لبيد في الاسلام هو :

ما عاتب المسرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح  
ونخالفه بعضهم الآخر فذكر أن البيت الأول ليس من نظم لبيد بل من نظم قردة بن نفثة السلولى .

ويدور النقاش الحديث حول صحة قول يونس كله . فقد وجد المحدثون في شعر لبيد ما شككهم فيه . وجدوا فيه ما قاله حين بلغ ٧٧ سنة :

قامت تشكى الى النفس مجهشة  
وقد حملتك سبعا بعد سبعين  
فان تزدى ثلاثا تبغى أمــــلا  
وفي الثلاث وفاء للثمانين  
وما قاله حين بلغ ٩٠ سنة :

كأنى وقد جاوزت تسعين حجة  
خلعت بها عن منكبي ردائيا

---

(١) الوليات ٢ : ٤١٧ .

(٢) انظر النقاش الطويل لقول يونس عند يحيى الجبورى في كتابه : لبيد ابن ربيعة العامرى ٤٩ - ٥٧ وشعر المخضرمين ٢٢٣ .

وما قاله حين بلغ ١١٠ سنة :

أليس في مئة قد عاشتها رجل

وفي تكامل عشر بعدها عمر ؟

١  
على حين أنه قضى في الجاهلية ٦٠ سنة من عمره فقط .  
ووجدوا فيه ما قاله أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجوه  
أن يدعو الله لانزال الفيث ، وما رثى به أخاه أربد بعد اسلامه .  
ووجدوا فيه كثيرا من المعاني الاسلامية التي استقاها من القرآن  
والحديث والجو الاسلامي ، مثل قوله :

ان تقوى ربنا خير نفل      وبإذن الله ريثى وعجس  
أحمد الله فلا ند لـ      بيديه الخير ما شاء فعل  
من هداه سبل الخير اهتدى      ناعم البال ومن شاء أضل  
وقوله :

رأيت التقى والحمد خير تجارة

رباحا اذا ما المرء أصبح ثاقلا

وغيرهما ، مما يؤكد خطأ قول يونس .

كذلك أطلق يونس القول في ثلاثة من الخلفاء الراشدين . قال  
أبو عبيدة (١) : زعم يونس أن عليا وعمر وعثمان رضى الله عنهم  
لم يقولوا شعرا الا أن يقولوا بيتا .

ويضعنا هذا القول أمام مشكلة عويصة ، اختلف فيها العلماء ،  
فكان منهم من أيد يونس تأييدا كاملا أو في بعض قوله مثل حكمه  
على عثمان . وكان منهم من اختلف معه مثل ابن رشيقي الذي  
قال (٢) : « فهؤلاء الخلفاء الأربعة رضوان الله عليهم ما منهم الا من  
قال الشعر » ، وقال عن عمر (٣) : « كان من أنقذ أهل زمانه للشعر

(١) مجاز القرآن ٢ : ١٥٩ (الحواشي) .

(٢) العمدة ٣٥ . وانظر كتاب الاسلام والشعر ليحيى الجبوري ٧٩ - ١٢٨ .

(٣) العمدة ٣٣ .

وأنفذهم فيه معرفة » ، وقال عن علي (١) : « كان مجودا » . وروى لهم عدة قصائد وأبيات . وبين أيدي العلماء الآن ديوان كامل منسوب الى علي . فاذا كان الشك يحوط قدرا ، يختلف فيه العلماء ، من قصائده ، فانه لا يرقى اليه جملة .

ووجدت ليونس بعض الأقوال التي تدل على انه نظر في الرواية والرواة ، ورصد بعض الظواهر التي ظهرت له .

أما الرواية فيبدو انه كان مؤمنا بما قال أستاذه أبو عمرو ابن العلاء عن كثرة الشعر العربي في الجاهلية ، وكثرة ما ضاع منه في أثناء انتقاله اليهم . فقد كان هو الذي نقل عن أبي عمرو قوله (٢) : « ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقله ، ولو جاءكم وافرا لجاءكم علم وشعر كثير » . وكان هذا القول واحدا من الأقوال التي نشرت بين الناس تصور سهولة نظم الشعر على العربي ، حتى كاد كل عربي يكون شاعرا عندهم .

ونقل أبو عبيدة عن أستاذه يونس أن أبا عمرو اعترف بانتحال أحد أبيات الشعر . قال أبو عبيدة (٣) : قال يونس : قال أبو عمرو ابن العلاء : أنا الذي زدت بيت الأعشى في شعره - يعني :

وأكثرني وما كان الذي نكرت

من الحوادث الا الشيب والصلعا

فسار في الناس وذهب ، فأتوب الى الله منه . وقال : لم أزد في أشعار العرب غيره .

ولكنني لا أقطع بصحة هذا القول . فقد روى تلميذ آخر ليونس ما يشكك في صدوره عنه ، ويجعلنا نميل الى أن بعض

(١) العمدة ٣٤ .

(٢) ابن سلام : الطبقات ٢٣ . ابن جنى : الخصائص ١ : ٣٨٦ . ابن الأنباري : النزهة ١٧ .

(٣) مجاز القرآن ١ : ٢٩٣ . ابن الأنباري : شرحه للمفضليات ٥٦٥ .

تلاميذه وضع هذا القول على فمه انقاصا من قدر أبي عمرو ، ويزداد الشك بنا حين نذكر أن أبا عبيدة كان شعوبيا يتغنى « بمثالب العرب » ، ويحاول أن ينتقص من كبارهم . يستطرد ابن الأنباري بعد إirاده رواية أبي عبيدة فيقول : « وقال محمد بن سـلام الجمحي : وحدثني جوان قال : قال يونس : قال أبو عمرو : وأنا الذي قلت هذا البيت :

وانكرتني . . .

قال : فلقيت يونس فسألته : من الذي يقول هذا البيت ؟ فقال : الأعشى . فقلت : ما قول أبي عمرو فيه ؟ فقال : قال أبو عمرو : وما بقي بعد الشيب والصلع ؟ كان ينبغي أن يتأتى لأن يقول الذي تكرت الشيب والصلع » . فيونس ينسب البيت صراحة للأعشى ، ولا يعرف قولاً لأبي عمرو فيه غير نقد معناه .

وتصدي يونس بن حبيب لاثنيين من رواة الشعر بالنقد والتكذيب . أما أولهما فبزرج بن محمد النحوي الكوفي ، الذي هاجمه هجوما مقنعا ، إذ قال عنه (١) : « أن لم يكن بزرج أروى الناس فهو أكذب الناس » . ويبدو أن كثيرا من العلماء يوافقون يونس في رأيه في الرجل . قال المازني (٢) : « روى بزرج بن محمد العروضي شعرا لامرئ القيس . فقال له جناد : ممن رويت هذا ؟ قال : عنى ، وحسبك بي . فقال له جناد : من هذا أتيت يا غافل » .

وأما الثاني فالراوية الذي واجهته السهام من كل علماء البصرة ، وهو حماد الراوية . ولم يتقنع يونس في مهاجمته بل رماه في قسوة وعنف . قال ابن سـلام (٣) : « سمعت يونس يقول : العجب

(١) ابن النديم : الفهرست ٧٢ .

(٢) ياقوت : معجم الأدباء ٧ : ٧٣ .

(٣) الطبقات ٤١ .

لمن يأخذ من حماد ، كان يكذب ويلحن ويكسر « وزاد غسير  
ابن سلام (١) : « ويصحف » . وذكر أبو عبيدة أن يونس قال  
أيضا (٢) : « قدم حماد البصرة على بلال بن أبي بردة ، وهو عليها ،  
فقال : ما أطرفتنى شيئا . فعاد اليه فأنشده القصيدة التى فى شعر  
الخطيئة مديح أبى موسى . فقال : ويحك ! يمدح الخطيئة أبى موسى  
لا أعلم به ، وأنا أروى شعر الخطيئة ؟ ! ولكن دعها تذهب فى  
الناس » .

ولكن هذه الأقوال لقيت معارضة من كثيرين ، كشف عنها  
الدكتور ناصر الدين الأسد (٣) فى درسه لنظرية الانتحال فى الشعر  
الجاهلى . فقد أبان أن القصيدة التى حكم عليها يونس بالانتحال  
رواها محمد بن حبيب عن ابن الأعرابى وأبى عمرو الشيبانى  
معا (٤) ، وأثبتها المدائنى البصرى وذكر (٥) « أن الخطيئة قال هذه  
القصيدة فى أبى موسى ، وأنها صحيحة ، قالها فيه وقد جمع جيشا  
للغزو » . وكشف عما فى القول الأول من دغل ، على ضوء التناقض  
بينه وبين أقوال العلماء الآخرين . فقد قيل ان المفضل الضبى قال  
عنه (٦) : « رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ، ومذاهب الشعراء  
ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل ويدخله  
فى شعره . فتختلط أشعار القدماء ، ولا يتميز الصحيح منها  
الا عند عالم ناقد » وقيل انه (٧) كان « من أعلم الناس بأيام العرب

- 
- (١) أبو الطيب : المراتب ٧٣ . الجاحظ : رسائله ٢ : ٢٢٦ . السيوطى :  
الزهر ١ : ١٧٦ .  
(٢) ابن سلام : الطبقات ٤١ . السيوطى : الزهر ١ : ١٧٦ .  
(٣) مصادر الشعر الجاهلى ٤٣٨ - ٤٥٠ .  
(٤) ديوان الخطيئة ٣٤ .  
(٥) الأغاني ٢ : ١٧٦ .  
(٦) الأغاني ٦ : ٨٩ .  
(٧) ياقوت : معجم الادباء ١٠ : ٢٥٨ .

وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها » . فأى هذه الأقوال يصدق على الرجل ؟ !

ونخلص من هذا بأن يونس بن حبيب لم يكن الرجل الذى يمكن ان يلقب بالراوي ، أريد لم يكن الرجل الذى جعل همه البحث عن الشعر والسعى وراءه وحفظه وروايته لذاته دون هدف وراءه . فلم تعد روايته الأبيات التى تشهد لظواهر لغوية ونحوية ، والمقطوعات التى تتصل ببعض الأخبار التى عنى بها ، والقصائد التى اتصل بمن نظمها . ولم يتجاوز جهده الى رواية مجموعة من الأشعار أو ديوان لشاعر .

وقد أوقعه ذلك فى بعض المشاكل فى نسبة بعض الأبيات التى عزاها الى أناس فلم يتابعه الناس وآثروا قول غيره كالمفضل . وأوقعه فى بعض الأخطاء التى شاعت وضللت العلماء أمدا طويلا . وأوقعه أيضا فى بعض الخطأ فى الحكم على الرواة الذين نقس روايتهم دون أن يكون متبحرا مثلهم فيها أو نظيرا لهم فى العناية بها . ويؤدى بنا ذلك الى عدم تصديق ياقوت (١) حين يبرى يونس فى حفظ الأشعار وروايتها فيعلن أنه كان : « حافظا لأشعارهم » . فان ما بين أيدينا من آثاره لا يكفى لأن نقرنه بمن نعرفه من رواة الشعر .

ونخلص أيضا الى أنه يجب الاحتراس فيما ينقل عن الرجل ، اذ يبدو أن بعض تلاميذه نسبوا اليه ما لم يقله لهوى فى نفوسهم الضعيفة الحاقدة .

---

(١) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٥ .

## الأخبار

يروى الرواة أن عمر بن الخطاب قال (١) : « الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه » ، وأن معاوية بن أبي سفيان قال (٢) : « الشعر ديوان العرب والدليل على أحاديثها وأفعالها » .

اذن كان الشعر - في خلد العرب - في القرن الأول السجل الذي يحفظ معارف العرب ، وأقوالهم ، وأعمالهم ؛ وأنه لم يقاربه سجل آخر في هذا العمل ؛ وأن من سعى أن يعرف شيئا عنهم فعليه بشعرهم .

وإذا كانت الأقوال التي عثرنا عليها من القرن الأول وتعرض هذه الصورة للشعر قليلة ومجملة ، فإنها صارت في القرن الثالث كثيرة ، ومفصلة ، بحيث لا تدع ريبا لمرتاب . قال الجاحظ (٣) : « فكل أمة تعتمد في استبقاء مآثرها ، وتحصين مناقبها ، على ضرب من الضروب ، وشكل من الأشكال . وكانت العرب في جاهليتها تحتال في تخليدها بأن تعتمد في ذلك على الشعر الموزون والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها » . وقال ابن قتيبة (٤) عن الشعر أن الله جعله لعلوم العرب مستودعا ، ولآدابها حافظا ، ولأنسابها مقيدا ، ولأخبارها ديوانا لا يرث على الدهر ولا يبید على مر الزمان .

كانت صورة الشعر على هذه الهيئة في القرن السابق على يونس ، والقرن اللاحق عليه ، صورة واحدة لا تزيدها الأيام إلا ثباتا وبروزا وجلاء تفاصيل . فلا عجب أن يروى يونس عن استاذة القول الذي رواه وأوردته في الفصل السابق ، وأكتفى منه هنا بجزئه

(١) ابن رشيقي : العمدة ١ : ٢٧ .

(٢) أخبار عبيد بن شربة ٣٥٢ .

(٣) الحيوان ١ : ٧١ .

(٤) تأويل مشكل القرآن ١٤ .

الآخر : ولو جاءكم ( ما قالت العرب ) وافرا لجاءكم علم وشعر كثير .

تؤدي بنا هذه الصورة الى النتيجة الطبيعية - والواقعة في حياة العرب - أن من اشتغل برواية الشعر العربي ، فاهما لمعانيه ، مدركا لمراميها ، كان العارف بأخبار العرب أو ما اعتقد العرب أنه أخبارهم ؛ وأن من سعى وراء معرفة أخبار العرب كان واجبا عليه البحث عن شعرهم أولا . فالبحث عن الشعر العربي والسعى وراء أخبار العرب هدفان لكن طريقتهما واحد . فاذا ما سلكه عالم واع أدرك الهدفين معا . ولست أشك في وعى يونس ، فكان لذلك حافظا للشعر ، عارفا بالأخبار . بل لقد أثر اجتماع هذين الأمرين في مزاجه وتذوقه للشعر ، فدفعاه الى الإعجاب بالشعر الذي يفى بهما . فوجد أمامه شعر الفرزدق لا يماثله شعر في هذا الجانب . فالتزمه ، وتتبعه ، وأحبه ، رافعا شعاره (١) : « لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس » .

وتدل الأخبار الباقية من رواية يونس أنه استقى بعضها من شيخه أبي عمرو ؛ وأنه استقى منه أخبارا متنوعة الطابع . فقد كان منها ما تؤمن العرب أنه تاريخها القديم . روى عنه مثلاً قوله (٢) : « العرب كلها ولد اسماعيل الا حمير وبقايا جرهم » ، وما حكاه عن براقش التي يضرب بها المثل (٣) . وكان منها القصص الشعبية الجارية على الألسنة تفسيراً لمثل (٤) .

كذلك استقى يونس بعض أخباره من رجل آخر غير مشهور ، ولكنه كان على معرفة واسعة بالأحداث التي أخذها يونس عنه .

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ١ : ٣٢١ .

(٢) ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ١٠ .

(٣) الميداني : مجمع الأمثال ١ : ٤٧٥ .

(٤) نفس المرجع ١ : ٤٩٧ .

قال أبو عبيدة في بعض أخباره (١) : « فحدثني سلام بن أبي خيرة قال : سمعته أيضا من أبي الخنساء كسيب العنبري يحدث يونس النحوي - وكان علامة أهل البصرة » .

ويدل ما أخذه يونس عن أبي عمرو أنه كان له مشاركة في العناية بهذين اللونين من الأخبار اللذين ذكرتهما . وفعلا نجد بين المرويات واحدا أو اثنين نستطيع أن نضعهما تحت النوع الأول ، غير أنه لم يصرح بمصدره . ولعله يروى الخبر التالي عن أبي عمرو أيضا ، إذ أنه متصل بالخبر الذي سقته آنفا . قال ابن سلام (٢) : « قال يونس بن حبيب : أول من تكلم بالعربية ، ونسى لسان أبيه ، اسماعيل ابن إبراهيم ، صلوات الله عليهما » . ويبدو أن الرجل كان قليل الاهتمام بمثل هذه الأخبار ، فلا تكثر عنده بل لا تتعدد .

أما النوع الثاني - أعنى القصص الشعبية - فأكثر عددا ، وتنوعا . ولعل السبب في ذلك اتصال أكثرها بالأمثال التي ألف فيها يونس كتابا .

وأكثر الأخبار الباقية لدينا من القصص الشعبية ما دار حول العلاقات الفردية ، وخاصة بين الرجال والنساء : أزواجا كانوا أو آباء وأبناء ، أو أقارب . مثال ذلك ما قاله في تفسير المثل القائل ( جاورينا واخبرينا ) قال (٣) : « كان رجلان يتعشقان امرأة . وكان أحدهما جميلا وسيما ، وكان الآخر دميما تقتحمه العين . فكان الجميل منهما يقول : « عاشرينا وانظري إلينا » . وكان الدميم يقول : « جاورينا واخبرينا » . فكانت تدنى الجميل . فقالت : « لأخبرنهما » . فقالت لكل واحد منهما أن ينحر جزورا . فأتتهما متنكرة . فبدأت بالجميل فوجدته عند القدر يلحس الدسم ويأكل

(١) شرح نقائض جرير والفرزدق ٧٢٤ .

(٢) طبقات فحول الشعراء ٩ . السيوطي : الزهر ١ : ١٧٤ .

(٣) الميداني : مجمع الأمثال ١ : ١٦٩ .

الشحم ، ويقولون : « احتفظوا كل بيضاء ليه » يعنى الشحم .  
فاستطعمته فأمر لها بثيل الجزور فوضع فى قصعتها . ثم أتت  
الدميم ، فاذا هو يقسم لحم الجزور ويعطى كل من سألته .  
فسألته ، فأمر لها بأطياب الجزور فوضع فى قصعتها . فرفعت  
الذى أعطاها كل واحد منهما على حدة . فلما أصبحا غدوا إليها ،  
فوضعت بين يدى كل واحد منهما ما أعطاها . وأقصت الجميل  
وقربت الدميم ويقال : انها تزوجته . يضرب فى القبيح المنظر  
الجميل المخبر .

وكان من القصص الشعبية التى اتسع انتشارها بين العرب  
واقبلوا عليها اقبالا لا نظير له ما دار حول العشاق ، والعذريين منهم  
خاصة . وكان ليونس أدنى مشاركة فيها ، فقد نسبت اليه رواية  
احدى هذه القصص . قال السراج (١) : « عن يونس قال : انصرفت  
من الحج فمررت بماوية ، وكان لى فيها صديق من بنى عامر  
ابن صعصعة ، فصرت اليه مسلما فأنزلنى . فبينما أنا عنده ، ونحن  
قاعدان بفنائيه ، اذا نساء مستبشرات وهن يقلن : « تكلم ! تكلم ! »  
فقلت : « ما هذا ؟ » فقالوا : « فتى منا كان يعشق ابنة عم له ،  
فزوجت وحملت الى ناحية الحجاز . فانه لعلى فراشه منذ حول  
ما تكلم ولا اكل الا أن يؤتى بما يأكله ويشربه . فقلت : « أحب أن  
أراه » . فقام وقمت معه . فمشينا غير بعيد وإذا بفتى مضطجع  
بفناء بيت من تلك البيوت لم يبق منه الا خيال . فأكب عليه الشيخ  
يسأله وأمه واقفة . فقالت : « يا مالك ، هذا عمك أبو فلان  
يعودك » . ففتح عينيه وأنشأ يقول :

ليبكنى اليوم أهل الود والشفق  
لم يبق من مهجتي الا شفا رmq  
اليوم آخر عهدى بالحياة فقد  
أطلقت من ربة الأحزان والقلق

(١) مصارع العشاق ١ : ٤٠ .

ثم تنفس الصعداء فاذا هو ميت . فقام الشيخ وقمت .  
فانصرفت الى خباته ، فاذا جارية بضعة تبكى وتتفجع . فقال الشيخ :  
« ما يبكيك ؟ » فأنشأت تقول :

الا أبكى لصب شف مهجته  
طول السقام وأضنى جسمه الكمد  
يا ليت من خلف القلب الهيوم به  
عندى فأشكو اليه بعض ما أجسد  
أنشر تربك أسرى لى النسيم به  
أم أنت حيث يناط السحر والكبد

ثم انثنت على كبدها وشهقت فاذا هى ميتة . قال يونس :

والخبر يسير على النمط الشائع فى هذه القصص ، ولا يخالفه  
أدنى خلاف .

وشارك يونس فى نوع آخر من القصص الشعبية كان له رواجه  
فى ذلك العصر ، أعنى قصص الحيوان ، أو القصص التى تتخذ من  
الحيوان أبطالاً لها ، وهى كثيرة وخاصة فى الأمثال . روى الميدانى (١)  
فى تفسير المثل القائل : ( لا أحب تخديش وجه الصاحب ) : « قال  
يونس : تزعم العرب أن الثعلب رأى حجراً أبيض بين لصبين فأراد  
أن يفتال به للأسد . فأتاه ذات يوم فقال : يا أبا الحارث ، الغنيمة  
الباردة : شحمة رأيتهما بين لصبين ، فكرهت أن أدنو منها ، وأحببت  
أن تتولى ذلك أنت ، فهلم لأريكهما : فانطلق به حتى قام به عليه .  
فقال : دونك يا أبا الحارث . فذهب الأسد ليدخل فضايق به المكان .  
فقال له الثعلب : اردس برأسك . أى ادفع برأسك . فأقبل الأسد

---

(١) مجمع الأمثال ٢ : ١٦١ .

يردس برأسه حتى نشب فلم يقدر أن يتقدم ولا أن يتأخر . ثم أقبل الثعلب يخوره ، أى يخدش خورانه من قبل دبره . فقال الأسد : ما تصنع يا ثعالة . قال : أريد لأستنقذك . قال : فمن قبل الرأس اذن . فقال الثعلب : لا أحب تخديش وجه صاحب . يضرب للرجل يريك من نفسه النصيحة ثم يغدر » .

ولا نستطيع أن ندعى ليونس منهجا ينفرد به في روايته لهذه القصص الشعبية الدائرة على الألسنة ، ولا طريقة ذات خصائص متميزة عن غيره . فمثله فيها مثل كل من رواها ، يقتصر على الرواية دون النقد ، ولا يحاول عليها تعليقا بالتصديق أو التكذيب .

ومهما يكن من شيء فما بقى لدينا منها قليل ، لا يمكن الاعتماد عليه في استخلاص شيء ذى بال عن يونس . ويبدو لى أن هذه القلة ناتجة عن عدم إعطاء يونس هذه الأخبار ما أعطاه غيرها من اهتمام . فأننا إذا قارنا بين ما وصل إلينا منها وما وصل من أخبار الشعراء وجدنا أخبار الشعراء أضعاف النوع الأول من القصص . ولنا الحق أن نقول أن أخبار الشعراء كانت الاهتمام الأول ليونس ، وأن غيرها إنما كان أمرا عارضا . لا أستثنى من ذلك غير ما تضمنته الأمثال ، إذ اضطر إلى العناية به في كتابه .

وعندما ننظر فيما بقى بين أيدينا من أخبار الشعراء نفاجأ بظاهرة لافتة للنظر ، وهى أن شيئا منها لا يعود إلى وراء البعيد ، ولا ينظر إلى الحاضر القريب . فلم أشر على خبر رواه يونس عن شاعر عباسى . وقد يكون هذا شيئا طبيعيا ، فان النحويين من أمثاله عدوا هؤلاء الشعراء مولدين ، ومنعوا الاستشهاد بأقوالهم ، ولم يعترفوا بهم . والاستثناء الوحيد خبر عن قرشى لم يذكر اسمه ، وليس فيه ما يجعله جديرا بالرواية . ولعل يونس فعل ذلك تملجا . قال ابن سلام (١) : « حدثنا يونس قال : كنا على باب

(١) السيرافى : أخبار النحويين البصريين ٢٨ .

ابن عمير ، فمرت بنا امرأة يدفع بعضها بعضا كأنها خائفة . فما لبثنا  
أن أقبل فتى من قریش عليه قميص قوهى ورداء . فلما رأنا  
ارتدع ، فقلنا : ها هنا طلبتك . فتبعها وقال :

إذا سلكت قصد السبيل سلكته  
وان هى عاجت عجت حيث تعوج .

ولم أعثر — للعجب — على واحد يرويه يونس من أخبار  
الجاهليين ، وهم أول من يستشهد بهم فى النحو .

وانما أقدم من حكى أخباره من الشعراء : المخضرمون مثل  
الحطيئة وعبد الله بن همام السلولى وأبى الأسود الدؤلى . قال  
ابن سلام : « أخبرنى يونس النحوى قال : خرج الحطيئة مع ابنته  
مليكة ، وامراته أمانة ، على ذود له ثلاث ، فنزل منزلا وسرح ذوده .  
فلما قام للرواح فقد أحداهن ، فقال (١) :

أذئب القفــــــــــــــــر أم ذئب أنيس  
أصاب البكر أم حدث اليبالى  
ونحن ثلاثة ، وثلاث ذود ،  
لقد جار الزمان على عبالى »

ثم يستأثر الأمويون بأغلبية الأخبار . وأشعر اثنى أتجوز فى  
هذا القول ، وأوسع النطاق أكثر مما يجب . فما وجدت الا خبرا  
واحدا عن أكثر الشعراء الذين تحدث عنهم ، مثل كثير عزة ،  
وأبى دؤاد الرؤاسى . قال ابن سلام : « حدثنى يونس بن حبيب  
قال : وقعت حرب بين عقيل بن كعب ونمير بن عامر ، فلم يقم لهم  
بنو عقيل ، وجعلت نمير تسرف عليهم . فلما رأت ذلك بنو كعب  
وبنو كلاب وما تلقى عقيل من نمير ، أجمعوا على قتل بنى نمير .  
فارتحلت نمير ليلحقوا ببنى سعد بن زيد مناة ، فلحقهم كلاب

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٩٦ .

فردتهم ، فتحملوا ما كان لهم من دم في بنى كعب ، ووهبوا لهم  
ما كان منهم . فقال أبو دؤاد الرؤاسي في ذلك (١) :

ففعنا ، والأحبة من دفعنا      وكنا ملجأ لبني نمير  
حسينا حجيرنا لهم فحلوا      إلينا بعد تظعان وسير  
وكان الرأس يوم قراص منا      ومنا الرأس يوم أبي عمير  
فان وهت العصا وأهنتموهم      فلا تستبدلوا أخيسال طير  
صديق كلما كنتم بشير      وأعداء اذا كنتم بخير «

وكانت أغلب الأخبار على هذا النمط من القصر ، فلا يطول  
وتتعدد الأشعار في غير ما رواه عن الأخطل ، وابن مفرغ الحميري ،  
وزيد بن عبد الملك . فقد روى (٢) : « ان حبابة جارية يزيد  
ابن عبد الملك غنت يوما :

بين التراقى والهبابة حرارة      ما تطمئن وما تسووغ فتبرد  
فأهوى لي طير فقالت : يا أمير المؤمنين ، ان لنا فيك حاجة .  
فمرضت وثقات فقال : كيف أنت يا حبابة ؟ فلم تجبه . فبكى  
وقال :

لئن لم تسل عنك النفس أو يذهل الهوى .  
فبالياس يسسلو القلب لا بالتجسس  
وسمع جارية لها تتمثل :

كفى حزننا بالهائم الصب أن يرى  
منازل من يهوى معطلة قفرا  
فكان يتمثل بهذا . . « .

كل هذا القول ينطبق على الشعراء الأمويين غير واحد ، ولذلك

(١) طبقات فحول الشعراء ٥٩٠ .

(٢) تاريخ الطبري ٢ : ١٤٦٥ ( أحداث سنة ١٠٥ ) .

صرحت أنى أتجوز حين أعلن أن هؤلاء الشعراء استأثروا بأغلب أشعاره . فالحق أن الذى استأثر بها هو ذلك الشاعر الواحد ، وهو الشاعر الذى حفظ شعره أخبار الناس ، أعنى الفرزدق .

فالأخبار الباقية تدل على أنه أولاه من العناية ما لم يول لغيره من الشعراء ، فروى عنه من الأخبار قدر ما روى عن بقية الشعراء الأمويين . وكشف عن جوانب متعددة من حياة الرجل ، تتصل بالأغراض المختلفة من شعره ، من غزل وفخر وهجاء ونقائض . قال ابن سلام (١) : « قال يونس : كان للفرزدق غلامان أحدهما اسمه وقاع ، والآخر نقطة . ولوقاع يقول الفرزدق :

تغلغل وقاع اليهــــــــــــــا فأصبحت  
تخوض خداريا من الليل أخضرا  
لطيف ، إذا ما انغل أدرك ما ابتغى  
إذا هو للظبي الغرير تقترا  
وقال أيضا :

|                                     |                                |
|-------------------------------------|--------------------------------|
| فأبلغهن وحى القول عنى               | وأدخل رأسه تحت القرام          |
| أمنيد ذو خريطة نهــــــــــــارا    | من المتلظى قســــــــرد القمام |
| فقلن له : نواعــــــــــــدك الثريا | وذاك اليه مجتمع الزحام         |
| ثلاث وأثنــــــــــــان فهن خمس     | وسادســــــــة تميل الى الشمام |
| فبتن بجانبى مصرعــــــــــــات      | وبت أفض أغلاق الختام »         |

والتفت بطبيعة الحال الى ما كان بينه وبين جرير من تناقض ، فروى خبرا يكشف عن خلق كل منهما ، قال (٢) : « كان الفرزدق يتضور ويجزع إذا أنشد لجرير ، وكان جرير أصبرهما » . وروى خبرا آخر يبين حال الناس بينهما ، قال (٣) : « ما شهدت مشهدا

(١) طبقات فحول الشعراء ٣٧ . المزياني : الموشع ١١٤ .

(٢) ابن سلام ٣١٧ .

(٣) ابن سلام ٢٥١ . الأغانى ٨ : ٥ .

قط ذكر فيه جرير والفرزدق فأجمع أهل ذلك المجلس على أحدهما .

وروى بعض الطوائف التي وقعت بين الفرزدق وبعض الشعراء مثل الحوار الذي دار بينه وبين الأحوص الأنصاري (١) ، وما كان بينه وبين نصيب في مجلس سليمان بن عبد الملك وحكيته في الفصل السابق ، كما ذكرت آنفا أخبار الشعراء الذين تعرض لهم يونس لأنهم تعرضوا للفرزدق مثل اللعين المنقري وجرير بن خرقاء العجلي .

ويهجس بخاطري ظن أن يونس تحدث عن أبي النجم ، إذ كان خبره له اتصال ما بأخبار الفرزدق . قال (٢) : « اجتمع الشعراء عند سليمان بن عبد الملك فأمرهم أن يقول كل رجل منهم قصيدة يذكر فيها مآثر قومه ولا يكذب . ثم جعل لمن برز منهم جارية مولدة . فأنشدوا ، وأنشد أبو النجم حتى أتى على قوله :

عدوا كمن ربيع الجيوش لصلبه عشرون ، وهو يعد في الأحياء  
قال : أشهد - أن كنت صادقا - أنك لصاحب الجارية . قال  
أبو النجم : سل الملاء عن ذلك يا أمير المؤمنين . قال الفرزدق : أما أنا  
فأعرفك منهم ستة عشر ، ومن ولد ولده أربعة ، كلهم قد ربيع .  
فقال سليمان : ولد ولده هم ولده ، أدفع اليه الجارية . »

، وطبعي بعد أن قال عن الفرزدق ما قال ، وحكى عنه ما حكى ،  
أن يعنى بما أشار إليه في شعره من أخبار . ولما كنا نعلم أن  
النقائض خاصة مليئة بالإشارات التاريخية التي تشيد بمفاخر قبيلة  
الشاعر ومآثرها ، وتعيب قبيلة خصمها بما كان فيها من مثالب  
أو ما قاسته في حروبها من هزائم ؛ كان غير غريب علينا أن نعتقد  
أن المجال الذي عنى يونس بأخباره فسيح ، لا يغفل جاهلية

(١) ابن سلام ٣١٢ .

(٢) ابن سلام ٥٧٨ .

ولا اسلاما . ولكن الحق اننا لا نملك دليلا على شيء من هذا .  
فكل ما وجدته منسوبا اليه اخبصار تتعلق بما اراد أن يضطلع به  
عبيد الله بن زياد في البصرة بعد وفاة الخليفة يزيد بن معاوية ،  
وعدم قيام خليفة يبايعه الناس ، واضطراب الأمر في الأقطار  
الاسلامية . وكان ذلك منه بمناسبة حديثه عن قول الفرزدق  
خاصا بهذه الأحداث :

ومنا الذي أعطى يديه رهينة      لغارى معد يوم ضرب الجماجم  
كفى كل أم ما تخاف على ابنها      وهن قيام رافعات المعاصم  
عشية سسال المريدان كلاهما      عجاجة موت بالسيوف الصوارم

قال أبو عبيدة (١) : « مبدأ حديثه أن يونس بن حبيب النحوى  
حدثنى قال : لما قتل عبید الله بن زياد الحسين بن علي رضيهما  
وبنى أبيه بعث برؤوسهم الى يزيد . فسر بقتلهم أولا وحسنت  
بذلك منزلة عبید الله عنده . قال : فلم يلبث الا قليلا حتى ندم على  
قتل الحسين رضي فکان يقول : وما كان على لو احتملت للحسين  
الأذى ، فأنزلته معى فى دارى ، وحكمته فيما يريد ، وان كان فى ذلك  
وكف ووهن فى سلطانى ، حفظا لرسول الله صلى الله عليه وسلم  
ورعاية لحقه وقرابته . لعن الله ابن مرجانة ، فانه أخرجه واضطره ،  
وقد كان سألته أن يخلى سبيله ويرجع من حيث أقبل أو يأتينى  
ويضع يده فى يدى أو يلحق بشعر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه  
الله تعالى ، فأبى ذلك ورده عليه وقتله ، فبغضنى بقتله الى المسلمين  
وزرع فى قلوبهم العداوة ، فأبغضنى له البر والفاجر بما استعظم  
الناس من اقتلى حسينا . مالى ولا ابن مرجانة ، لعنه الله وغضب  
عليه ! ثم ان عبید الله بعث مولى له يقال له أيوب بن حمران الى  
الشام ليأتيه بخبر يزيد . قال : فركب عبید الله ذات يوم حتى  
إذا كان فى رحبة القصابين اذا هو بأيوب بن حمران قد قدم فلحقه

(١) شرح نقائض جرير والفرزدق ٧٢١ . وانظر ٧٢٤ ، ٧٢٦ ، ٧٣٤ .

فأمر اليه موت يزيد بن معاوية . فرجع عبيد الله من مسيره ذلك .  
فأتى منزله وأمر عبد الله بن حصن - أحد بنى ثعلبة بن يربوع  
فنادى : الصلاة جامعة . . . » .

نخلص من هذا بأن يونس بن حبيب عنى بقسمين متميزين من  
الأخبار . يتألف القسم الأول من القصص الشعبية التي رددتها  
الأسنة في الجاهلية والإسلام على اختلاف ألوانها ، من قصص  
العلاقات بين الأفراد ، والعلاقات بين القبائل ، وقصص العشاق  
العذريين ، وقصص الحيوان المتخيلة . وكان الذي دعاه إلى العناية  
بهذه الألوان من القصص الشعبية أو أغلبها ، كتاب الأمثال الذي  
ألفه ، لأن الأمثال تقوم على هذا القسم من القصص ، ولم يختلف  
نهج يونس عن نهج نظرائه الذين عنوا بهذا القسم وجمعوا أخباره  
ودونوها دون نقد ولا تمحيص .

ويتألف القسم الثانى من أخبار الشعراء . وقد أهمل يونس  
الجاهليين والعباسيين منهم فلم أجد فيما بين يدي من أخبار  
شيئا عنهم . واقتصر على المخضرمين والإسلاميين أو الأمويين ،  
فتحدث عن جماعة منهم ، غير أن أقسط الأكبر من حديثه كان عن  
الفرزدق ومن اتصل بهم وما أشار إليه في شعره من أحداث .  
فلا عجب أن ينعتة الناعتون بأنه كان فرزدقيا (١) . ويدل هذا على  
صدق قول ابن سلام حين وصف يونس فقال : « أخبارى نسابة  
وخاصة أخبار شعراء بنى أمية » . فكل ما بين أيدينا يؤكد الشطر  
الثانى من هذا القول .

أما وصفه « بالنسابة » فلم أجد في الأخبار التى عثرت عليها  
ما يدعمه غير حديثه عن ابن مفرغ الحميرى ، فقد أورد نسبه  
أو قطعة منه . ولم أجد ما يشبه ذلك فيما بقى من حديثه عن  
سائر الشعراء . وكان لنا الحق في الشك في هذا الوصف ، لولا أن

---

(١) أبو الفرج : الأغانى ٨ : ٥ .

يونس - فيما يبدو - كان مشهورا بمعرفة الأنساب وما تحتوى عليه من مفاخر ومثالب ، حتى ضرب به المثل . قال الجاحظ (١) : « وصف الهذيل المازنى مثنى بن زهير وحفظه لأنساب الحمام ، فقال : والله لهو أنسب من سعيد بن المسيب واقتادة بن دعامة للناس ، بل هو أنسب من أبى بكر الصديق رضى الله عنه . لقد دخلت على رجل أعرف بالأمهات المنجبات من سحيم بن حفص ، وأعرف بما دخلها من الهجنة والاقراف من يونس بن حبيب » . اذن فلا شك أنه كان نسابة حقا ، وان لم يتبين ذلك فيما بقى من مروياته .

وكشف لنا النظر فى هذه المرويات أنه أخذ قسطا منها من أستاذه أبى عمرو ، والقسط الآخر من العارفين بالأخبار ، المعاصرين لها ، وتحرى منهم الذين اشتهروا بسعة المعرفة والثقة . وعنى فى هذه الأخبار بما اتصل بحياة الشعراء ، وبما اشتهروا اليه فى شعرهم . وحاول الإحاطة الشاملة فى رواية الأخبار التى تضمنها الشعر ، فعنى بالدقائق والتفاصيل ، وصورها على اتساع مجالها دون أن يقتصر على الجزء الذى يوضح الشعر منها .

### النقد

برز لنا يونس بن حبيب واحدا من علماء العربية ، الذين عاشوا فى القرن الثانى ، وشارك فيما أخذوا فيه . فكان له حظ من رواية الشعر ، وأكثر من حظ فى العناية بأخبار أصحابه والأخبار الواردة فيه ، وخاصة من العصر الأموى .

وقد احتفل علماء العربية فى هذا العهد بنقد الشعر احتفالا كبيرا ، بل يمكن القول بأن هذا الاحتفال تجاوز علماء العربية الى غيرهم من عامة الناس ، بسبب ما اشتبك فيه جرير والفرزدق

(١) الحيوان ٣ : ٢١٠ .

والأخطل. وجماعة كبيرة من الشعراء من تناقض ، وترقب الناس لما يخرجهم كل منهم رداً على خصمه ، ثم التنازع في غلبة كل منهم على الآخر في النقيضتين أنا ، وفي النقائض كلها أنا أخرى ؛ وفي فن الهجاء آونة ، وفي الشعر بجميع فنونه أخرى . حتى قال من أرخ للنقد العربي (١) : « غير أن الحال تغيرت كثيراً في أواخر القرن الأول ، تغيرت في أخريات أيام فحول الإسلاميين . فارتقى النقد الأدبي ارتقاء محموداً ، وكثر الخوض فيه ، وتعمق الناس في فهم الأدب ، ووازنوا بين شعر وشعر ، وبين شاعر وآخر ، حتى نستطيع أن نقول : أن عهد النقد الصحيح يتبدى من ذلك الوقت ، وأن كل ما سبق لم يكن غير نواة له أو محاولات فيه » .

ولم يكن من الطبيعي أن يعيش يونس في هذه المعركة الشعرية وأعقابها ، وفي هذه المعركة النقدية ، ولا يصاب بحماها ، وخاصة أن بعض شيوخه كان لهم نصيبهم فيها .

وإذا كان الأمر كذلك ، أحب أن أستهل بما اقتصر فيه يونس على الرواية ، وحكاية مواقف شيوخه ، ومن التقى بهم من الناس . وحين نفعل ذلك نجد يونس يروي عن أربع فئات من الناس : الشعراء ، وكبار القوم ، والشيوخ ، وجماهير الناس .

فكان أكثر من روى عنهم الشعراء ، من أمثال الفرزدق ، ورؤبة ، وذى الرمة . وقد أوردت سابقاً الخبر الذي أعجب فيه الفرزدق بشعر لنصيب حتى وصفه بأنه أشعر بنى جلدته . وأما رؤبة فقد اتهم جريراً بالكذب أو الخطأ في واحد من معانيه . قال أبو عبيدة (٢) : « قال رؤبة - وأنشده يونس بيت جرير :

انى اذا الشاعر المغرور حرنى      جار لقبر على مران مرموس

(١) طه أحمد إبراهيم : تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٢٢ .

(٢) الموشع ١١٩ .

فقال رؤبة : كذب والله ، ما تميم بمران انما هو بذات عرق ،  
وقبر مفد بمران » .

وروى نقدين عن اثنين من خلفاء بني أمية ، وهما سليمان  
ابن عبد الملك ، الذي شارك الفرزدق في الاعجاب بأبيات نصيب ؛  
وعبد الملك بن مروان الذي فضل أبياتا للأعشى على أبيات لكثير .  
اقال ابن سلام (١) : « قال يونس : أنشد كثير عبد الملك مدحته التي  
يقول فيها :

على ابن أبي العاصي دلاص حصينة  
أجاد المسدي سردها وأذالها  
يؤود ضعيف القوم حمل قتيها  
ويستضلع القوم الأشم احتمالها  
فقال له عبد الملك : قول الأعشى لقيس بن معدى كرب أحب الى  
من قولك اذ تقول » . أراد بقول الأعشى :

واذا تجيء كتيبة ملمومة  
شهباء يخشى الدائدون نهالها  
كنت المقدم ، غير لابس جنه  
بالسيف تضرب معلما أبطالها

وآثر برواية النقد شيخا واحدا هو ابن أبي اسحاق ، فحكي  
مواقفه من الفرزدق ، والمهركة التي احتدمت بينهما بسبب ما ارتكب  
الشاعر في لفته . وروى عنه رايًا كان منكرا له . قال ابن سلام (٢) :  
« أخبرني يونس كالمتعجب أن ابن أبي اسحاق كان يقول : اشعر  
أهل الجاهلية مرقش ، واشعر أهل الاسلام كثير . ولم يقبل هذا  
القول ولم يشع » .

(١) الموشح ١٤٥ : وانظر تكملة الخبر ورد كثير عند ابن سلام ٤٥٧ .

(٢) طبقات فحول الشعراء ٤٤ ، ٤٥٧ .

أما الجماهير التي أورد آراءها فقد قال ابن سلام بصددتها (١) :  
« أخبرني يونس بن حبيب : أن علفاء البصرة كانوا يقدمون  
امراً القيس بن حجر ، وأهل الكوفة كانوا يقدمون الأعشى ، وأن أهل  
الحجاز يقدمون زهيراً » . وأضاف السيوطي (٢) : « وكان أهل  
العالية لا يعدلون بالنابغة أحداً ، كما أن أهل الحجاز لا يعدلون بزهير  
أحداً » .

وكل هذه الأقوال غير ذات أهمية كبيرة للبحث عن يونس ،  
لأنها لا تكشف عن موقف الرجل ، ولا تبين رأياً خاصاً له ، غير  
استنكاره لما قال أستاذه ابن أبي اسحاق . وأن يونس لتروى عنه  
أقوال نقدية كثيرة تفنينا عن الالتفات إلى مروياته .

ونستطيع أن نجعل هذه الأقوال أصنافاً . نبدأ منها بأحكامه  
العامّة على فن الشعر . فقد روى سليمان بن اسحاق الزبالي عنه  
أنه قال (٣) : « الشعر كالسراء والشجاعة والجمال لا ينتهي منه  
إلى غاية » . ويدل هذا القول على أن الرجل كان يرى أن هناك  
أموراً معنوية ، وتقديرية ، يختلف النظر فيها ، ولا يستطيع أن  
يحكم أنها انتهت إلى غاية لها لا تتجاوزها بل لا يستطيع أن يقارن  
بين المفترفين منها : أيهم أعظم حظاً منها ، وخاصة عندما يتقارب  
نصيبهم . ومن هنا كان عسيراً أن نصل إلى رأي مجمع عليه أن فلاناً  
أشعر الشعراء . ولا أتفق مع الصديق الدكتور محمد زغلول .  
سلام (٤) أن هذا القول بصدد صلة الشعر بالأحاسيس الإنسانية .

وننتقل من فن الشعر عامة إلى أفراضه ، فقد كان ليونس  
نظرات في بعضها . فقد حاول أن يعرف المدح والتأبين ويفرق

(١) نفس المرجع ٤٤ .

(٢) المزمع ٢ : ٤٨٢ .

(٣) ابن سلام ٥٥ .

(٤) تاريخ النقد العربي ٣١ .

بينهما ، فقال (١) : « التأبين مدح الميت والثناء عليه . قال رؤبة : ( فأمدح بلالا غير ما مؤين ) والمدح للميت » . ولست أدري أيفرق يونس بين التأبين والرثاء أم لا . ولكن ما قاله هنا عده النقّاد التعريف الصحيح ، ولم يفرقوا بينه وبين الرثاء . فشاع (٢) بينهم أن الرثاء ثناء على الميت ، وأن لا فرق بينه وبين المدح غير موت المقصود بالأول وحياة المقصود بالثاني . وفقدنا عندهم الشعور بالأسى واللوعة من أجل الفقيد ، الى أن تنبه اليه ابن رشيق فأبرزه وان كان قد قصره على طبقة خاصة من الناس ، قال (٣) : « سبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع ، بين الحسرة ، مخلوطا بالتلف والاسف والاستعظام ، ان كان الميت ملكا او رئيسا كبيرا » . ولحسن الحظ أن الشعراء لم يأبهوا لهذا الكلام وساروا في طريقهم مظهرين ما شاءوا من عواطف ، فمنحونا مجموعة من روائع الرثاء .

ونظر في الهجاء ، ومسالك الشعراء فيه ، واستجابة الناس لكل واحد منها ، فقال (٤) : « أشد الهجاء الهجاء بالتفضيل ، وهو الاقْداع عندهم » . وقد أخذ يونس هذا القول مما جرى بين عمر ابن الخطاب والخطيئة . قال ابن رشيق (٥) : « لما اطلق عمر ابن الخطاب رضى الله عنه الخطيئة من حبسه اياه بسبب هجائه الزبرقان بن بدر ، قال له : اياك والهجاء المقْدع . قال : وما المقْدع يا أمير المؤمنين ؟ قال : المقْدع أن تقول : هؤلاء أفضل من هؤلاء وأشرف ، وتبنى شعرا على مدح لقوم وذم لمن تعادىهم . قال : أنت والله يا أمير المؤمنين أعلم منى بمذاهب الشعر . . » .

ولم يتفق كثير من النقّاد مع يونس في كون هذا النوع من الهجاء

(١) ابن سلام ١٧٤ .

(٢) الدكتور أحمد أحمد بدوي : أسس النقد الادبي عند العرب ٢٢٤ .

(٣) العمدة ٢ : ١٧٤ .

(٤) العمدة ٢ : ١٧٠ .

(٥) العمدة ٢ : ١٧٠ .

أشدها . فالأقوال متعددة في هذا الصدد تكشف عن اختلاف كبير «  
لعله يكشف عن مزاج القائل ، ومزاج العصر الذي كان يعيش .  
فعلى حين يقول أبو عمرو بن العلاء (١) : « خير الهجاء ما تنشده  
العدراء في خدرها فلا يقبح بمثلها » ويؤيده خلف الأحمر ويقول (٢) :  
« أشد الهجاء أعفه وأصدق » ، يقول القاضي الجرجاني (٣) :  
« فأما الهجو فأبلغه ما جرى مجرى الهزل والتهافت ، وما اعترض  
بين التصريح والتعريض ، وما قربت معانيه ، وسهل حفظه ، وأسرع  
علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس . فأما القذف والافحاش فسبب  
محض ، وليس للشاعر فيه الا اقامة الوزن وتصحيح النظم » ، ويرى  
قدامة بن جعفر (٤) أن الهجاء الجيد يكون بسلب الفضائل النفسية .

ونظر في تحسر الشعراء على الشباب المولى ، واستذكر ما يعرف  
من شعر ، فوجد أنه لا يفي بحق هذا العزيز الداهب . قال (٥) :  
« ما بكت العرب على شيء بكاءها على الشباب ، وما بلغت به كنه  
ما يستحق » . وقد أخذ الصولي (٦) عنه هذا الحكم ، وأفاد منه في  
تفضيل مقطوعة لمنصور النمرى .

والتفت الى العيوب العروضية التي تلحق الشعر ، فقال (٧) :  
« عيوب الشعر أربعة : الزحاف والسناد والإيطاء والاكفاء - وهو  
الاقواء » .

وقد اتفق بونس في تعريفه هذا للاكفاء مع (٨) « جلة العلماء

(١) العمدة ٢ : ١٧٠ .

(٢) العمدة ٢ : ١٧٠ .

(٣) الوساطة ٢٤ :

(٤) نقد الشعر ٣٠ .

(٥) المبرد : الفاضل ٧٢ . الربيعي ٤٩ .

(٦) أخبار أبي تمام ٢٧ .

(٧) ابن سلام ٥٦ .

(٨) العمدة ١ : ١٦٦ .

كأبي عمرو بن العلاء ، والخليل بن أحمد ، وأحمد بن يحيى ثعلب » ،  
غير أن المفضل الضبي والمبرد خالفا ، وجعلوا الكفاء اختلاف الحروف  
في الروى .

ونبه الى جماعة من كبار الشعراء وقعوا فيه ولم يفتنوا الى  
تبرئة شعرهم منه . قال (١) : « وقد ركب بعض الفحول الاقواء في  
مواضع مثل سحيم بن وثيل الرياحي في قوله :

عدلت البزل ان هي خاطرتني      فما بالي وبال ابن اللبـون  
وماذا يدري الشـعراء مني      وقد جاوزت رأس الأربعين  
فنون الأربعين مفتوحة ونون اللبون مكسورة ولكنه كأنه وقف  
القوافي فلم يحركها وقال جرير :

عرين من عرينة ليس منـا      برئت الى عرينة من عرين  
عرفنا جعفرنا وبني عبيـد      وانكرنا زعانف آخرين »

وهون يونس من شأن الزحاف ، دون بقية العيوب العروضية ،  
فقال (٢) : « أهون عيوب الشعر الزحاف ، وهو أن ينقص الجزء  
عن سائر الأجزاء » . فاتفق في هذا مع الخليل ، الذي ذهب الى أبعد  
مما ذهب اليه يونس ، فاستحسن القليل منه في الشعر (٣) .

وعثرت على قولين يدلان على أن يونس تحدث في أشياء تندرج  
تحت ما عرفه النقاد بالسرقات الشعرية . فاستبعد في قول الزبرقان  
الذي ذكرته آنفا السرقة ، ورأى أنها تضمنين لبیت على هيئة المثل  
السائر .

ويبدو أن يونس اعتمد في انكار أن يكون هذا الأمر من السرقة  
على أستاذه أبي عمرو بن العلاء (٤) الذي لم ير ذلك عيبا .

(١) مقدمة : نقد الشعر ١٠٩ .

(٢) الموشح ٨٣ . مقدمة : نقد الشعر ١٠٧ .

(٣) ابن سلام ٥٨ .

(٤) العمدة ٢ : ٢٨٣ .

ونبه في القول الثاني الى أحد المعاني التي استوحاها جرير من القرآن . فقد علق على بيته :

ما زلت تحسب كل شيء بعدهم خيلا تشسد عليكم ورجالا  
فقال (١) : « أخذ هذا المعنى من قول الله : ( يحسبون كل صيحة عليهم ، هم العدو ) » .

وعند يونس كثير من الأحكام العامة . أطلق بعضها على قبائل ، مثل قوله (٢) : « ليس في بني أسد الا خطيب أو شاعر أو قائف أو زاجر أو كاهن أو فارس . وقال : وليس في هذيل الا شاعر أو رام أو شديد العدو » . وأطلق بعضها الآخر على شعراء ، أعجب بشعرهم أو استهجنه جملة . فقد كان يعجب بشعر النابغة الجعدي ، ورجز رؤبة ، ويثنى عليهما . روى الجاحظ عنه أنه قال (٣) : « انما الشعر المحمود كشعر النابغة الجعدي ورؤبة » . واستنبط من ذلك أنه كان يميل الى الشعر غير المصنوع المجود ، ويفضله على الشعر الذي يتروى فيه صاحبه ويتأنق . وروى ابن سلام أنه كان معجبا أيضا بشعر ابن قيس الرقيات وعبد الله بن الزبيري من القرشيين ، قال (٤) : « كان عبيد الله أشد قریش أسر شعر في الاسلام بعد ابن الزبيري » . وكان الأخطل من الشعراء الذين أعجب بعلوية شعرهم ، قال (٥) : « ما أكثر ماء شعر الأخطل » . وأعتقد أنني في غنى عن الإشارة الى إعجابه بشعر الفرزدق لما احتوى عليه من أخبار الناس .

وكان البعيث المجاشعي في مرحلة متوسطة ، از أساء في فن

---

(١) الجاحظ : الحيوان ٥ : ٢٤٠ .

(٢) الجاحظ : البيان ١ : ١٧٤ .

(٣) البيان ٢ : ١٣ ، ٣ : ١١ ، ٤ : ٨٤ .

(٤) طبقات فحول الشعراء ٥٣٠ .

(٥) الصولى : أخبار أبي تمام ٣٣ .

وأحسن في آخر ، قال عنه (١) : « لعمري لئن كان مغلبا في الشعر ،  
لقد كان غلب في الخطب » . وكان الأديب اذا غلبه خصومه قيل :  
مغلب ، واذا غلبهم هو قيل : غلب (٢) .

أما الشاعر الذي لم يرض عنه فهو عبيد الله بن الحر . قال  
اسحاق (٣) : « قلت ليونس : عبيد الله بن الحر يقوى ؟ فقال :  
« لا قواء خير منه » .

وهناك رجل آخر لم يكن شاعرا ، ولكنه كان بليغا ، لفت اليه  
أنظار يونس ، فتعلقت به في اعجاب خالص ، وجعلته يقول (٤) :  
« ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن ( عثمان ) البتي » .

وأشاد يونس بالناطقة الجعدى ورؤية والعجاج مرة أخرى ، غير  
أنه أزاح الستار في هذه المرة عن الغرض الشعري الذي يرى كلا منهم  
قد برز فيه أكثر من غيره . قال ابن سبلاّم (٥) : « يونس : كان  
الجعدى أوصف الناس لفرس . أنشدت قوله رؤية :

فان صدقوا قالوا : جواد مجرب

ضليع ومن خير الجياد ضليعها

قال رؤية : ما كنت أرى المرفف منها الا أسرع . ولم يكن  
رؤية والعجاج صاحبي خيل ، ولكن كانا صاحبي ابل ونعتها » .

وقال المرحوم الأستاذ طه أحمد ابراهيم (٦) : « عرف يونس ان

---

(١) الجاحظ : البيان ١ : ٣٧٤ ، العصا ٢٠١ . السيوطي : الزهر ٢ : ٤٨٨ .

(٢) ابن قتيبة من يونس : أدب الكاتب ١٧٣ .

(٣) قدامة : نقد الشعر ١٠٩ . الجاحظ : الحيوان ١ : ١٣٤ .

(٤) الميداني : مجمع الأمثال ٢ : ٢٠٦ . وانظر سعيدا الأفغاني : في اصول  
النحو ٥٦ ( الحواشي ) .

(٥) الطبقات ١٠٧ . الجاحظ : رسائله ٢ : ٢٢٠ .

(٦) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ٦٢ .

امراً القيس وعبيد بن الأبرص وأوس بن حجر وعبد بنى الحسحاس  
وذا الرمة كانوا يحسنون وصف المطر .

وأعتقد أن الأمر اختلط عليه ، فالذى أدلى بهذا الحكم هو  
ذو الرمة لا يونس ، كما يدل قول ابن سلام (١) : « أخبرني يونس  
ابن حبيب قال : قيل لذي الرمة : من أحسن الناس وصفاً للمطر ؟  
فذكروا : قول عبيد :

دان مسف فوق الأرض هيبه  
يكاد يدفعه من قام بالسراج

.. وذكروا قول عبد بنى الحسحاس :

تعبت به ظننا وأيقنت أنه  
يحط الوعول والصخور الرواشيا

.. فقال : بل قول امرئ القيس أجود حيث يقول :

ديمة هطلاء فيها وطف طبق الأرض تحسرى وتدر «

ولما كان العصر الذى عاش فيه يونس عصر الموازنة بين  
الشعراء ، وتفضيل أحدهم على الآخر ، بل تفضيل أحدهم على جميع  
الشعراء أحياناً ، كان من الطبيعى أن يشارك رجل مثله فيما يخوض  
فيه الناس أو يضطر الى ذلك ، وإن كان لا يؤمن بصحة هذا  
المسلك . فقد رأيناه يحكم بعسر الوصول الى أمثال هذه الأحكام  
المطلقة فى الأمور التقديرية . وقد أحسن يونس كل الاحسان عندما  
تهرب من سؤال بتفضيل واحد من الشعراء ، ولجأ الى الفن الذى  
أحسن فيه كل شاعر . قال ياقوت (٢) : « حدث محمد بن سلام  
قال : « سألت يونس النحوى عن أشعر الناس ، فقال : لا أومى الى  
رجل بعينه ، ولكنى أقول : امرؤ القيس اذا ركب ، والنابغة اذا

(١) الطبقات ٧٦ .

(٢) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٥ .

« رهب ، وزهير اذا رغب ، والأعشى اذا طسرب » . عنى بذلك أن  
 « امرأ القيس تفوق على غيره في وصف الخيل ، والنبغة في الاعتذار ،  
 وزهيرا في المدح ، والأعشى في وصف الخمر . وقد وجد هذا القول  
 قبولا عاما من الأدباء والنقاد منذ صدوره الى يومنا هذا ، وكثر  
 ترديده على كل لسان تعرض لهؤلاء الشعراء . ولكننا لسنا على يقين  
 من صدوره عن يونس . فقد روى (١) أن قائله كثير أو نصيب ، فإن  
 كان ذلك حقا كان يونس راويا له لا مبتكرا . ورواه الأصمعي أيضا  
 عن ابن أبي طرفة .

وبالرغم من كل هذا الحصر الذي أبداه يونس ، والتوقي في  
 خوض غمار معركة التفضيل بين الشعراء ، فقد وقع فيها واصطلى  
 بابهيبها ، وخرج برأى غريب ، لم يرافقه أحد فيه ، واعتقد أن الذي  
 فرضه عليه أهدافه اللغوية . قال ابن رشيق (٢) : « زعم يونس أن  
 العجاج أشعر أهل الرجز والقصيد . وقال : انما هو كلام فأجودهم  
 كلاما أشعرهم ، والعجاج ليس في شعره شيء يستطيع أحد أن يقول :  
 لو كان في مكانه غيره لكان أجود . وذكر أنه صنع أرجوزته :

\* قد جبر الدين الاله فجبر \*

فيها نحو مثنى بيت وهى موقوفة مقيدة . قال : ولو اطلقت  
 قوافيها وساعد فيها الوزن لكانت منصوبة كلها » .

ويبدو أن تلميذه أبا عبيدة حاول أن يزيد هذا الكلام إيضاحا ،  
 ويدعمه بأدلة ، فقال (٣) : « انما كان الشاعر يقول من الرجز  
 البيتين والثلاثة ونحو ذلك ، اذا حارب أو شاتم أو فاخر ، حتى  
 كان العجاج أول من أطاله وقصده ، ونسب فيه ، وذكر الديار ،

(١) العمدة ١ : ٩٥ .

(٢) العمدة ١ : ٨٩ . أبو الفرج ( طبعة الساسي ) ١٨ : ١٢٤ . المرمر

٢ : ٤٨٤ .

(٣) العمدة ١ : ٩٠ .

واستوقف الركاب عليها ، ووصف ما فيها ، وبكى على الشباب ،  
ووصف الراحلة ، كما فعلت الشعراء بالقصيدة ؛ فكان في الرجز  
كامرئ القيس في الشعراء » .

وإذا كان يونس فقد الرفيق في تفضيله المطلق للعجاج على  
سائر الشعراء والرخاز ، فقد كان أكثر توفيقا في أحكامه التي وازن  
فيها بين شاعرين أو ثلاثة ، ولقى من يؤيده ويؤنس في طريقه . روى  
الكسائي (١) : « حضرت مجلسا والخليل فيه ويونس بن حبيب  
النحوي ، فتذاكروا الشعر . فتكلم يونس في تقديم زهير وتقرظه  
حتى أفرق في وصفه . وذكر الخليل النسابة الدياني » .  
وكلا الرجلين اعتمد على سابقين له في تفضيل الشاعر الذي  
فضل (٢) ، وتابعه في رأيه لاحقون .

ولما كان يونس يفضل العجاج على الجميع فقد مد رأيه هذا على  
ابنه رؤبة أيضا . قال أبو عبيدة (٣) : « قال رؤبة ليونس : أنا أشعر  
من أبي . قال : بل أبوك أشعر منك . قال : أبي يقول :  
يا دار سلمى ، اسلمى ثم اسلمى . بسمسسم أو عن يمين سمسسم »

وكانت الظروف جميعا تجبره أن يخوض مع الخائضين في المعركة  
بين شعراء بني أمية الثلاثة . فجعلهم مراتب ثلاثا . كانت المرتبة  
الأولى للأخطل ، والثانية للفرزدق ، والثالثة لجريز . قال  
أبو عبيدة (٤) : « جاء رجل إلى يونس فقال له : من أشعر  
الثلاثة ؟ قال : الأخطل . قلنا : من الثلاثة ؟ قال : أي ثلاثة ذكروا  
فهو أشعرهم . قلنا : عمن تروى هذا ؟ قال : عن عيسى بن عمر  
وابن أبي اسحاق الحضرمي وأبي عمرو بن العلاء وعنبسة الفيل

(١) مجالس العلماء ٢٥٩ .

(٢) ابن سلام ٤٧ ، ٥٢ . ابن رشيقي ١ : ٩٨ .

(٣) الموشح ٢١٨ .

(٤) الأغاني ٨ : ٢٨٣ . البيهقي : الأماشي ٨٠ . الزمخشري : ربيع الأبرار

٤ : ١٠٤ . معجم الأدباء ٢٠ : ٦٥ .

وميمون الأقربن ، الذين ماشسوا الكلام وطرقوه . . لا كأصحابك هؤلاء لا بدويون ولا نحويون . فقلت للرجل : سئله : وبأى شيء فضلوه ؟ قال : بأنه كان أكثرهم عدد طوال جياذ ، ليس فيها سقط ولا فحش ، وأشدهم تهديبا للشعر . فقال أبو وهب الدقاق : أما إن حمادا وجنادا كانا لا يفضلانه ! فقال : وما حماد وجناد ؟ لا نحويان ولا بدويان ، ولا يبصران الكسور ولا يفصحان ، وأنا أحدثك عن أبناء تسعين أو أكثر ، أدوا الى أمثالهم ، ماشسوا الكلام وطرقوه حتى وضعوا أبنيتهم ، فلم تشد عنهم زنة كلمة ، والحقوا السليم بالسليم والمضاعف بالمضاعف والمعتل بالمعتل والأجوف بالأجوف وبنات الياء بالياء وبنات الواو بالواو ، فلم تخف عليهم كلمة عربية . وما علم حماد وجناد ! » .

وعقب ياقوت على هذا القول بأن يونس انفرد به . وذلك غير صحيح . فابن سلام يقول (١) : « فاختلف الناس فيهم أشد الاختلاف وأكثره . وعامة الاختلاف أو كله في الثلاثة . ومن خالف في الراعى قليل ، كأنه آخرهم عند العامة » يريد عامة العلماء . وأبو عبيدة يقول أيضا (٢) : « كان يونس بن حبيب وعيسى بن عمر وأبو عمرو يفضلون الأخطل على الثلاثة » . ولا نعجب لهذا كثيرا إذا وضعنا أمامنا عبارة أبي عبيدة التي تبرز نظرهم الى الأخطل ، قال (٣) : « الأخطل أشبه بالجاهلية ، وأشدهم أسر شعر ، وأقلهم سقطا » . فقد كانوا بشعراء الجاهلية أعلق وألزم .

ولم أعثر على قول ليونس فضل فيه الفرزدق على جرير . ولكن أبا الفرج حكى ذلك في قوله (٤) : « كان يونس فرزدقيا » ،

(١) الطبقات ٢٥١ .

(٢) الأغاني ٨ : ٣٠٥ .

(٣) الأغاني ٨ : ٢٩٢ .

(٤) الأغاني ٨ : ٥ .

وأبان ابن سلام أبعاد هذا الإعجاب في قوله (١) : « كان يونس يقدم الفرزدق بغير افراط » .

وأورد الدكتور محمد زغلول سلام خبرا بشأن الموازنة بين الشعراء الثلاثة يدل على أن يونس كان يقدم الفرزدق عليهم جميعا . قال (٢) : « كان يونس بن حبيب يفضل الفرزدق . ويعمل ذلك بأنه أكثرهم عدد قصائد طوال حياته ، ولم نجد للأخطل عشرة بهذه الصفة ، ووجدنا لجزير ثلاثا بهذه الصفة » . ولكنه لم يذكر مصدر الخبر ، ولم أجده في موضع آخر . وأخشى أن يكون الأمر اختلط فيه بين الفرزدق والأخطل ، إذ أن ما حكاه عن الفرزدق ينطبق على ما أوردته آنفا عن الأخطل . وأخشى أيضا أن يكون هذا الخبر قد خلط إلى جانب ذلك كلام يونس بتعليق أبي عبيدة عليه حين قال (٣) : « فنظرنا في ذلك ، فوجدنا للأخطل عشرة بهذه الصفة ، وإلى جانبها عشرة أن لم تكن مثلها فليست دونها ، ووجدنا لجزير بهذه الصفة ثلاثا » .

وما عثرت عليه من نقد تطبيقي عند يونس قليل كل القلة . فقد عاب صورة رسمها أمرؤ القيس بأنها غير حقيقية . قال ابن سلام (٤) : « أنشدت يونس النحوى هذا البيت الذى لا مرىء القيس :

إذا ما الثريا في السماء تعرضت    تعرض أثناء الوشاح المفصل

فزوى وجهه وجمع حاجبيه وقال : أخطأ مع احسانه ، ان الثريا لا تعرض ، انما الاعتراض للجوزاء ، هلا قال كما قال ذو الرمة :

---

(١) الطبقات ٢٥١ .

(٢) تاريخ النقد العربى ٨٩ . وانظر ما يصف هذا الخبر عند ابن سلام

٣١٥ ، والمزباني في الوشاح ١١٦ .

(٣) الأغاني ٨ : ٢٩٢ .

(٤) الطبقات ٧٣ . ابن منظور : نثر الأرهار ١٠٩ .

وردت اعتسافا والثريا كأنها

على قمة الرأس ابن ماء محلق » .

وعاب في قول ثان لفظا استخدمه الأعشى ، وفضل عليه أبياتا مروان بن أبي حفصة من نفس روى شعر الأعشى ووزنه . قال المرزبانى (١) : « حدثنا الأصمعى قال : كنا في حلقة يونس فجاء مروان بن أبي حفصة فقال : أيكم يونس ؟ فأومأنا إليه فجلس . فقال : أصلحك الله ، انى أرى أقواما يقولون الشعر لأن يكشف أحدهم عن سوءته فيمشى في الطريق أحسن به من أن يظهر مثل ذلك الشعر ، وقد قلت شعرا أعرضه عليك ، فان كان جيدا أظهرته ، وان كان رديئا سترته . وأنشده :

طرقتك زائرة فحى خيالها بيضاء تخطط بالحياء دلالتها

فقال له : يا هذا ، اذهب فأظهر هذا الشعر ، فأنت والله فيه أشعر من الأعشى . يريد في قوله :

رحلت سمية غدوة أجمالها . . .

فقال له مروان : قد سؤتني وسررتني ، فأما الذى سررتني به فلارتضائك الشعر ، وأما الذى سؤتني به فلتقديمك إياي على الأعشى . قال : نعم ، ان الأعشى قال :

فربيت غفلة عينه عن شاته فأصبت حبة قلبها وطحالها

والطحال لا يدخل في شيء الا أفسده ، وأنت لم تقل ذلك » . وأحب أن أشفع هذا الخبر بشك فيه ، اذ سبق أن ذكرت ان مروان أبى أن يستمع الى القصيدة ، وأمهل الشاعر الى أن يأتى خلف الأحمر ليكون هو الحكم . وهناك مصادر ترى أن خلفا هو صاحب هذا القول .

---

(١) الموشح ٥٥ . معجم الأدباء ٢٠ : ٦٦ .

ونخرج من دراسة النقد عند يونس بصورة عن الرجل ، تبرز بعض الجوانب فيه ، وتفغل بعضها الآخر . فتبرز لنا الصورة هوى الرجل ، وأين يتجه مزاجه .

فهو يحب من الشعر : ما كان من حيث المضمون كثير الأخبار كـشعر الفرزدق ، أو مانحا للعظة وحائا على الخلق الكريم مثل شعر عدي بن زيد العبادي ؛ ومن حيث الشكل وأفر الرونق والعدوبة كشعر الأخطل ، محكما متلاحما كشعر ابن قيس الرقيات وابن الزبير ، والأخطل أيضا الذي كان يعنى بتهذيب شعره . .

قال ابن سلام (١) : « سمعت يونس وقد تمثل بهذا البيت :  
أيها الشامت المعير بالدهـ ر أنت المبرأ الموفـور  
أم لديك العهد الوثيق من الأيا م ؟ بل أنت جاهل مفرور  
فقال : لو تمنيت أن أقول شعرا ما تمنيت إلا هذه ، أو مثل هذه » .

واقف أمام ما ذكره الجاحظ أن يونس كان يحب من الشعر غير المصنوع ولا المحبر ، فيأتى بعضه سامى الارتفاع وبعضه الآخر ساقطا ، كما كان تلميذه الأصمعي (٢) يحبه كذلك . فان أكثر ما بين يدي من أقوال يعارض هذا التصريح . فتفضيل الرجنل لزهير ابن أبي سلمى ، الذي كان أكبر رأس في مدرسة عبید الشعر ، حتى قال عنه (٣) « أهل النظر : كان زهير أحصفهم شعرا ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى في قليل من المنطق ، وأشدهم مبالغة في المدح ، وأكثرهم أمثالا في شعره » ؛ وتقديمه للأخطل الذي نظره أستاذة أبو عمرو (٤) بالناطقة من الجاهليين ، الذي احتج من

(١) الطبقات ١١٨ .

(٢) ابن سلام ١٠٥ : ابن رشيقي ١٠٧ .

(٣) ابن سلام ٥٣ .

(٤) ابن سلام ٥٥ .

فضله بأنه (١) : « كان أحسنهم ديباجة شعر ، وأكثرهم رونق كلام ، وأجزلهم بيتا ، كان شعره كلام ليس فيه تكلف » ؛ وتأخيره لجريير الذى لم يكن يروى فى شعره (٢) ؛ كل ذلك يدل على أن التوفيق خان الجاحظ فى قوله ، وأنه ربما أراد الأصمعى فذكر يونس سهوا .

وتبرز لنا الصورة المنهج الذى كان يؤثره الرجل فى النقد ، فقد كان يعتمد أكثر ما يعتمد على الموازنة . قال ابن دريد (٣) : « قيل ليونس أو خلف : بم تعرف الشعر الجيد ؟ فقال : بالشسقة . إقال : الشسقة : أن تزن الدينار بآزاء الدينار لتنظر أيهما أثقل ، ولا أحسبه عربيا محضا » .

وكان عند الموازنة يبحث عن آراء السابقين ممن درسوا كلام العرب ، وألفوه ، وعاشوه ، فعرفوا مسالكه ودروبه ، وهم البدو وعلماء العربية . ولم يكن يتقبل أقوالهم على علاتها ، بل رفض بعضها كما فعل مع ابن أبى اسحاق .

وكان يقيم مقارنته بين الشعراء ، وتفضيله أحدهم على نظيره ، على عدة أسس كشف عنها فى حديثه عن العجاج والأخطل . الأساس الأول كثرة ما أصدر من قصائد . وتزداد هذه القصائد قيمة عند طولها ، حتى أشاد بأن أرجوزة العجاج بلغت مثنى بيت . والأساس الثانى الجودة . ولم يسكت الرجل عند ذلك ، بل أبان لنا بعض المظاهر التى نعتد عليها فى الحكم بالجودة . فكانت عنده تجنب الفحش ، وقد أتاه ذلك من الجانب الخلقى الذى التزمه فى حياته . وكانت تجنب السقط ، وهو ما عبر عنه بطريقة أخرى حين قال : « ليس فى شعره شيء يستطيع أحد أن يقول : لو كان فى مكانه غيره لكان أجود » .

---

(١) ابن سلام ٤٦ . وانظر وصف يونس وأبى عبيدة السابق لشعره .

(٢) ابن سلام ٣١٥ .

(٣) الجمهرة ٣ : ٣٤٤ . المزهرة ١ : ٢٧٨ .

ونحن عند التأمل في هذين الأساسين اللذين وضعهما للمفاضلة بين الشعراء نتبين أنهما أهم الأسس التي اتخذها محمد بن سلام بعد ذلك مقياسا لتقسيم الشعراء الى طبقات . فكان يونس أهدي الى تلميذه أهم عمد كتابه الذي يعد أحسن ما أصدره العرب في النقد في عصره . حقا ، اعتمد ابن سلام على كثيرين من العلماء السابقين على يونس ، والمعاصرين له ، واللاحقين ؛ ووسع أسس يونس فكشف فيها عما لم يظن اليه الرجل ، ولكن ذلك كله لا ينقص من قدر يونس ، وخاصة اذا أضفنا ما أدلى به من أحكام في انتحال الشعر اتخذها ابن سلام أيضا مع غيرها عمادا لما أقام به الدليلا وأقعدا في أقواله في هذا الصدد .

ويبدو أن يونس كان على حظ كبير من قوة الملاحظة ، أعانه على التنبيه الى أشياء اعتمد عليها في نقده : فقد كان القدماء يحكون الخبر التالي في عجب ، مستدلين به على توارد خواطر الشعراء على الصورة الواحدة . قال بلال بن جرير الشاعر (١) : « وقف الفرزدق على أبي بمربد البصرة ، وهو ينشد قصيدته التي هجا بها الراعي . . فلما بلغ الى قوله :

\* بها برص بجانب أسكتيها \*

وضع الفرزدق يده على فيه وغطى عنقه ، فقال أبي :

\* كعنقة الفرزدق حين شابا \*

فانصرف الفرزدق وهو يقول : « اللهم اخزه ، والله لقد علمت حين بدأ بالببيت أنه لا يقول غير هذا ، ولكن طمعت ألا يابه فغطيت وجهي ، فما أغناني ذلك شيئا » . أما يونس فيذهب الى أبعد من ذلك ويقول : « ما أرى جريرا قال هلا المصراع الا حين غطى الفرزدق عنقه ، فانه نبهه عليه بتغطيته إياها » .

(١) الأغاني ٨ : ٢٤ - ٥ . والعنقة : شعرات بين الشفة السفلى والذقن .

كل ذلك يجعلنا لا نعجب حين نرى الناشئين من الشعراء يعرضون عليه شعرهم ليتعرفوا على رأيه فيه ، ويقوم منه ما يستحق التقويم ، كما فعل مع مروان ، وكما يبين الخبر التالي . روى محمد ابن سلام عن وهب بن أبي ابراهيم التميمي البرجمي (١) : « جاشت نفسي بشيء من الشعر ، فقلت ليونس : ان رجلا صاحب شعر ، وقد جاشت نفسه بشيء منه ، وهو يكره أن يخرج حتى تسمعه . قال : هات . فأنشدته فقال : من هذا العاض بظر أمه » .

ولا نعجب أن يلقى يونس الثناء من القدماء والمحدثين . قال ياقوت (٢) فبالغ كما كان يبالغ القدماء : « كان يونس عالما بالشعر ، نافذا البصر في تمييز جيده من رديئه ، عارفا بطبقات شعراء العرب . يرجع اليه في ذلك كله » . وقال الدكتور محمد مندور (٣) مقتصدا كما يفعل المحدثون : « وجد نقاد الشعر الخبIRON كالضبي وخلف ويونس بن حبيب ثم الجمحي » . وقال طه أحمد ابراهيم (٤) : « فأما أبو عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب فلهما في نقد الأدب آراء حسنة ، ولهما فيه أثر جليل . يعدان في النحويين ، ويعدان كذلك في اللغويين الذين وطدوا النقد الأدبي ، ونظموا بحوثه ، واستنبطوا مقاييسه » .

### النظم

قال الفيروز أبادي في تعريف يونس بن حبيب (٥) : « الأديب الشاعر » .

أما الأديب فهو لقب استحق أن يتحلى به بما كان له من مشاركة في رواية الشعر ، وجهد في حكاية الأخبار التي استخرجها

(١) الموشح ٣٦٧ .

(٢) معجم الأدباء ٢٠ : ٦٥ .

(٣) النقد المنهجي عند العرب ١٧ .

(٤) تاريخ النقد الأدبي ٥٢ .

(٥) تحفة الأبي ١١٠ .

منه ، وجهود مشرفة في النقد . بل ربما استحققه بجهوده في اللغة والنحو ، اذ أطلق بعض المؤرخين على رجال العلمين الآخرين رجال الأدب ، وعدوا يونس « من الطبقة الخامسة في الأدب » (١) أرادوا بذلك الجيل الخامس من اللغويين والنحاة . وصنيع ياقوت في معجم الأدباء أشهر من أن يذكر ، حين أدخل فيه كل صاحب تأليف على اختلاف العلوم والفنون .

وأما الشاعر فلقب انفراد به الفيروز أبادي ، وله مدلول واحد لم يضق فتنبصر عنه جماعة ولا اتسع فتندرج تحته كرة أخرى ، مثل اللقب السابق . ولم يقع في يد بيت واحد صرح أحد الكتاب أنه من نظم يونس . بل انز العبارة التي أثبتتها سابقا ، وتحكى إعجاب يونس ببيت عدي بن زيد العبادي تبين في جلاء أنه ليس بشاعر ، قال : « لو تمنيت أن أقول شعرا . . » فهو لم يقل شعرا ولا تمنى أن يقوله . ولذلك أعتقد أن هذا القول سهو من الفيروز أبادي لا حقيقة وراءه .

---

(١) ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . ابن العماد ١ : ٣٠١ .

## الفصل الثاني

### الدراسات اللغوية

#### اللغة

أعلن من أرخوا ليونس بن حبيب انه أصدر أربعة كتب . اذنا نظرنا الى عناوينها جعلنا الرجل من العلماء باللغة والقرآن والأدب . فاذا أدمننا النظر وعمقناه ، واستنبطنا الظواهر ، تبين أن الكتب الأربعة تعطينا صورة واحدة ، هي صورة اللغوي . فالرجل كان لغويا في جهوده جميعا . اتخذ من اللغة وسيلة وغاية . فعنى بكل ما يجعله قادرا على الاحاطة باللغة ، من شعر وأخبار ونقد ، عارفا بمسالك العرب في حديثهم من نحو وصرف .

ولو وصلت اليها هذه الكتب لنتحتنا صورة وافية للرجل ، ولكننا مضطرون الى استقصاء الأقوال المتناثرة منه في الكتب المختلفة للتعرف عليه ، كما فعلنا في بقية الحقول التي عنى بها . ولحسن الحظ أن ما بقي من هذه الأقوال غير قليل .

وأحب للتيسير أن أعتمد على تصنيف ما لهذه الأقوال . فأبدأ بما أدلى به من أقوال عن « اللفظ » . وحينئذ أجد أنه عالـج فيما عالـج صورة هذا اللفظ ومعناه . وكانت جل عنايته موجهة الى هذه الصورة عندما تتعدد بالضبط مع بقاء مدلولها واحدا لا يتغير . روى ابن دريد عنه (١) : « تقول العرب : ان في مض لمطعما ، وفي مض ، ومض : يريدون بذلك كسر الرجل شدقه عند سؤال

---

(١) الجمهرة ٣ : ٤٥٩ . وميم مض بالكسر والفتح والضم . .

الحاجة » . وروى ابن السكيت عنه (١) : « أبى قائلها الا تما وتما  
وتما - ثلاث لغات : يعنى تمام الكلام » و « أهل العالية يقولون :  
السم والشهد ، وتميم تقول : السم والشهد » (٢) .

وعالج صورة اللفظ عندما يتعدد ضبطها مع تعدد مدلولها  
أيضا . روى عنه ابن السكيت (٣) : « غرفت غرفة واحدة ، وفي  
الآناء غرفة ، وحسوت حسوة واحدة ، وفي الآناء حسوة » .

وعالج صورة اللفظ عندما تتعدد هيئتها ويتغير تكوين حروفها ،  
مع بقاء معناها واحدا . روى عنه ابن السكيت (٤) : « ذوى العود  
يدوى ذويا ، وقد ذأى يذأى ذأوا . وقسال الأصمى : ولا يقال  
ذوى . قال أبو عبيدة : قال يونس : هى لغة » . وروى ابن دريد  
عنه (٥) : « ذففه بالسيف وذافه وذفه : اذا أجهز عليه ، وذفف  
عليه . وذففه وذافه وذفه وذفف عليه : اذا أجهز ، أى قتله » .

ويبدو أنه خاف أن يقع تصحيف في بعض الألفاظ ، فأعلن عن  
الحروف التى خاف فيها ذلك بالعبارة . روى عنه ابن دريد (٦) :  
« حففت الشيء - بالصناد غير المعجمة : اذا ألقيته من يدي .  
وحففته - بالضاد معجمة : اذا عطفته » .

ووجه أكبر قسط من عنايته الى الصيغ غير الشائعة من  
الألفاظ . فكان جل الألفاظ التى أوردها فى كتبه ، ونقلتها عنه  
المصادر الباقية من هذا النوع الذى قد نسميه تيسيرا « الفريب » ،  
مهما كان أصله أو استعماله . فنجد فى هذه الألفاظ : الأفعال الثلاثية

(١) اصلاح المنطق ٩٨ . والتاء بالكسر والضم .

(٢) اصلاح المنطق ١٠٤ . أهل العالية يضمون الحرف الأول وتميم تفتح .

(٣) اصلاح المنطق ١٢٩ . أدب الكاتب ٢٤٧ ، ٤٣٥ . الزهر ٢ : ٢٩٩ .

(٤) اصلاح المنطق ٢١٣ . أدب الكاتب ٣٦٦ .

(٥) الجهرة ٣ : ٤٥٩ .

(٦) الجهرة ٢ : ٤٥٩ .

السائلة ، مثل ما رواه ابن السكيت (١) : « وقد بعل الرجل يبعل : إذا صار بعلا ، حكاهما يونس ، وأنشد : \* يا رب بعل ساء ما كان بعل \* » ، والثلاثية المضاعفة ، مثل ما رواه ابن السراج (٢) : « زعم يونس أنهم يقولون : كع يكع . قال سيبويه : يكع أجود . وهو كما قال » ، والثلاثية المعتلة مثل قول الفراء (٣) : « أنشدنا يونس النحوى :

وب حلم أضاعه عدم الما ل ، وجهل غطى عليه النعيم  
يتخفيف غطى » ، والأفعال المضارعة من الثلاثي مثل التى حكاهما عنه الصفثانى فى الشوارد : « ينثر ما فى الجراب : مثل ينثر . . يخطر ببالى : لغة فى يخطر . عىن الأمر : لغة فى عىن وعىن » ، والأفعال المزىة مثل ما جاء فى الشوارد : « وترت الصلاة ووترتها : مثل أوترتها . . حشمته : أفضبته ، مثل حشمته وأحشمته . . أحلات السوىق : مثل حلأته » .

ونجد منها المصادر مثل ما جاء فى الشوارد : « مصدر الأ - أى قصر - آلو وآلو . . الأبو : الأبوة . . قدمت البصرة قدمانا : أى قدوما » ، والجموع مثل آخاء التى رواها ابن جنى (٤) ، وما جاء فى الشوارد (٥) : « اللؤمان : اللئام . . يقال فى جمع سقب الناقة : سقبان ، وفى جمع سقب البيت - وهو عموده : سقبان . يجمع الجدى جسداناً » ، والأسماء مثل ما رواه ابن درىء (٦) : « قال يونس : القرطبى ، مثل فعلى : الصرع على القفا . وأخبرنا أبو حاتم

- 
- (١) أصلاح المنطق ٢١٥ . العىن مفتوحة .  
(٢) الحل ٦١ ظ . الكاف مفتوحة واستجاء سىبوىه كسرهما .  
(٣) السىرافى : أخبار النحوىىن البصرىىن ٢٨ . وانظر ابن ولاد : المقصور والمدود ٨١ .  
(٤) الخصائص ١ : ٣٣٨ . سر الصناعة ١ : ١٦٦ .  
(٥) وانظر ابن السكىء : أصلاح المنطق ٤١٣ .  
(٦) الجمهرة ٣ : ٤٦١ . القاف مكسورة والراء ساكنة والباء مشددة مفتوحة .

عن أبي عبيدة عن يونس : شهد أعرابيان الجمعة ، فلما ركع الناس وجعلوا يتأخرون قال أحدهما لصاحبه : أثبت فانها القرطبي « وما رواه الصفاني : « العلى : العلة » .

ونجد منها الصفات كالتى وردت في الشوارد : « المصياف : الذى لا يتزوج حتى يشمط . . هذا امر صفران حقران : أى صغير حقير . . اناء ثلثان : الى الثلث ، كالنصفان : الى النصف » .

وتتعدد الأسباب التى تجعل هذه الألفاظ غريبة ، ولكنها جميعا تؤول الى عدم قياسيتها . فقد كان منها ما خضع لاببدال أو اعلال غير قياسى ، مثل قوله (١) : « مضيت على الأمر مضوا ، وهذا الأمر ممضو عليه » وقوله في الشوارد : « الامتطال : الانتطال . . التحليل : الاحليل . . يتم يا تم : مثل يتم » ؛ ومالم يعمل على حين كان واجبا اعلاله مثل قوله في الشوارد : « أجوبت القدر - وهذيل تقول : أجيبته - : أى غلفتها » ؛ وما خضع لقلب غير قياسى مثل قوله في الشوارد : « أمق للعين : مأقها . . امرأة مفاضة : أى مفضاة . وافاضها : أى أفضاها » ؛ وما خضع لحذف غير قياسى مثل قوله في الشوارد : « المضرخ : المضرخى ، كالقطام للقطامى » . فلان مضلع لهذا الأمر : أى مضطلع ، وكذلك مطلع » .

وكان منها المشتقات غير القياسية ، اذا أخذت من علم مثل قوله في الشوارد (٢) : « اختاف : أتى خيف منى ، كأخاف وأخيف ، مثل امتنى : اذا أتى منى » ، أو أخذت من اسم مثل قوله في تهذيب الألفاظ (٣) : « تقول العرب : امرأة معجزة : يعنون ضخمة العجيزة » ، وقوله في الشوارد (٤) : فاكه من الفاكهة ، مثل

- 
- (١) اصلاح المنطق ٢٧٠ . الميم مضمومة والواو مشددة .  
(٢) وانظر اصلاح المنطق ٣٤١ ، وتهذيب الألفاظ ٤٨٦ ، وشرح القصائد السبع الطوال ٥٣٥ .  
(٣) ٣١٨ . الجيم مشددة مكسورة .  
(٤) المرمر ٢ : ٢٧٥ .

لابن وتامر « وقوله في الجمهرة (١) : « تقول العرب : فلان أضيع من فلان : أى أكثر ضياعا منه . ولم يقله غيره » .

وآن الأوان لترك صورة الألفاظ ، والتفت الى معناها ، وأتبع الأمور التي عالجها ونبه عليها في هذا الجانب . واذ نفعل نرى أنه فطن الى أن بعض الألفاظ استخدمت للدلالة على معان معينة مدة من الزمان ثم أهملت لسبب ما فلم يعد الناس يستخدمونها ، وعد هذا النوع من الألفاظ ميتا . قال ابن دريد (٢) : « الفطر : فعل ممات ، يقال : مر فلان يفطر بيديه : مثل يخطر سواء ، هكذا يقول يونس » . وقال أبو عبيدة (٣) ليونس حين أنشده شعر الأسدي :

ومركضة صريحي أبسوها      تهان له الغلامة والفلام  
أفتقول للجارية غلامة ؟ قال : لا ، هذا من الكلام المتروك  
وأسماءه زالت مع زوال معانيها . كالمرباع والنشيط ، وبقي  
الصفايا » .

وأورد المعاني غير المعروفة للألفاظ الشائعة في معان أخرى . قال ابن دريد (٤) : « سرق الشيء : اذا خفى . هكذا يقول يونس ، وأنشد :

وتبيت منتبذ القذور كأنما      سرقت بيوتك أن تزور المرقدا  
كأنما سرقت : أى خفيت » . ولكنه لم يفعل ذلك حبا للغريب لذاته ، بل كان يجعل معنى الشعر هو الحكم ، فان اقتضى المعاني الغريبة أوردتها ، والا رفضها رفضا باتا ، قال أبو عبيدة (٥) : ( قدم

---

(١) ٣ : ٩٥ .

(٢) الجمهرة ٢ : ٣٦٩ .

(٣) الجاحظ : الحيوان ١ : ٢٢٩ .

(٤) الجمهرة ٢ : ٣٢٤ .

(٥) ابن خلكان ٢ : ٤١٧ .

جعفر بن سليمان العباسي من عند المهدي الخليفة . فبعث الى يونس  
ابن حبيب فقال له : انا وامير المؤمنين اختلفنا في هذا البيت :  
والشيب ينهض في السواد كأنه ليل يصيح بجانبه نهـسار  
فما الليل والنهار ؟ فقال يونس : الليل الليل الذي تعرف ،  
والنهار النهار الذي تعرف . فقال : زعم المهدي أن الليل فرخ  
الكروان ، والنهار فرخ الحباري . وعقب أبو عبيدة على الخبر  
بقوله : « القول في البيت ما قاله يونس ، والذي قاله المهدي  
معروف في الغريب من اللغة » .

وعنى بالترادفات فأورد مجموعة منها كما كان يفعل أصحاب  
كتب النوادر واللفات والرسائل اللغوية على الموضوعات . قال  
ابن دريد (١) : « قال يونس : تقول العرب : فطر ناب البعير ،  
وشقاً نابه ، وبقل ، وبزغ ، وصبأ : بمعنى واحد » . وروى  
أبو عبيدة عنه (٢) : « رجل لباب ومصاص وخيار ، ويقال للاثنين  
والجميع على هذا اللفظ ، لا يثنى ولا يجمع » .

وكان يمحس الالفاظ قبل أن يحكم عليها بالترادف ، فان وجد  
بينها أدنى خلاف أخرجها من حظيرة الترادف . قال التبريزي (٣) :  
« قال يونس : الفقير : يكون له بعض ما يقيمه . والمسكين : الذي  
لا شيء له . قال الراعي :

أما الفقير الذي كانت حلوبته وفق العيال قلم يترك له سبب  
وقلت لأعسرأبي : أفقر أنت أم مسكين ؟ فقال : لا والله  
بل مسكين » .

ووجد مجموعة من الالفاظ تتقارب معانيها أو تترابط  
أو تتواصل ، فأتى بها في الموضع الواحد ، وكشف ما بينها من تقارب

(١) الجمهرة ٣ : ٤٦٠ .

(٢) شرح النقاظ ٤٦٨ .

(٣) تهذيب الالفاظ ١٥ . شرح ابن الأثير على المفصليات ٢٣٥ .

وتباعد حتى تتضح معانيها كل الوضوح . قال السيرافي (١) : « قال  
يونس : تقول العرب : الآل : من غدوة الى ارتفاع الضحى الأعلى »  
ثم هو سراب سائر اليوم . . وإذا زالت الشمس فهو فيء ، وغدوة :  
ظل . وأنشد لأبي ذؤيب :

لعمري لانت البيت أكرم أهله      واقعد في أفيائه بالأصائل  
.. وكان كذا وكذا الليلة ، تقول ذاك الى ارتفاع الضحى ،  
وإذا جاوز ذاك قالوا : كان البارحة » . وقال ابن دريد (٢) : « قال  
يونس : تزوج فلان في شربة نساء : يريد حيا تلد نساؤهم الاناث .  
وتزوج في عزارة نساء : يريد حيا تلد نساؤهم الذكور » .

ولم يقصر يونس جهوده اللغوية على اللفظ المفرد بل تعداه الى  
العبارة المركبة ، التي شعر بغرابتها . وأنها لا تسير على النحو الشائع  
في العبارة العربية . وأورد أنواعا عدة من هذه العبارات نجد أكثرها  
من العبارات ذات المعنى الغريب أو الخاص أو الأدبي . قال  
السيوطي (٣) : « قال يونس : تقول العرب للرجل اذا لقي شرا :  
ثبت لبده ، يدعون بذلك عليه ، والمعنى دام ذلك عليه » . وقال  
سيبويه (٤) : « ذو صباح : بمنزلة ذات مرة ، تقول : سير عليه  
ذا صباح . أخبرنا بذلك يونس عن العرب » . وقال التبريزي (٥) :  
« عن يونس : كسر في ذلك أربا : اذا طمع فيه » . وقال  
ابن السكيت (٦) : « قولهم ( لا دريت ولا أتليت ) يدعو عليه بأن  
لا تتلى إبله أي لا يكون لها أولاد ، عن يونس . . قال يونس : يقال :  
ما ثملت شرابي بشيء من طعام ، ومعناه ما أكلت — قبل أن اشرب —  
طعاما ، وذلك يسمى الثملة » .

(١) اخبار النحويين البصريين ٢٩ . نزهة الالباء ٣٢ .

(٢) الجمهرة ٣ : ٤٥٩ .

(٣) الزهر ٢ : ٢٦٨ .

(٤) الكتاب ١ : ١١٥ .

(٥) تهذيب الالفاظ ٤٣٨ .

(٦) اصلاح المنطق ٣٥٥ ، ٣٩٤ .

ونجد بينها ما عرفه اللغويون باسم الاتباع ، قال أحمد  
ابن فارس (١) : « يونس : انه شقيح لقبح » . وقيل في الشوارد :  
« هذا الشر والبر : اتباع » .

ونجد بينها ما جاءته الغرابة من تثنية ما حقه الافراد ، قال  
سيبويه (٢) : « قد يثنون ما يكون بعضا لشيء . زعم يونس أن  
رؤية كان يقول : ما أحسن رأسيهما » ؛ أو التذكير والتأنيث غير  
القياسيين ، قال ابن سلام (٣) : « سمعت يونس - وقيل له :  
ما يعنى الراعى بقوله :

يبيت الحية النضناض منه مكان الحب يستمع السرارا

قال يونس : الحب : القرط - أو قال : الشنف - والنضناض :  
الذى يخرج لسانه . قال يونس : يقولون : حية ذكر ، ونعامة  
ذكر ، وشاة ذكر ، وبطة ذكر ؛ ولم أسمعه منه » . وجاء في الشوارد  
عنه : « ليلة مقمر : مثل مقمرة .. يقال : كثرت مال فلان ، يؤثون  
المال كما أثوا القوم . قال الله تعالى : « كذبت قوم نوح  
المرسلين » .

ودخلت الغرابة على بعض العبارات من تعدية الفعل اللازم .  
جاء في الشوارد عنه : « مكرته : أى مكرت به .. أوماه : أى أوما  
اليه » .

ونخلص من دراسة ما وصل إلينا من أقوال يونس بن حبيب  
بأنه كان يعنى باللفظ والعبارة . فعالج اللفظ من حيث صورته  
عندما تعدد سواء بقى معناه واحدا أو تعدد ، والصور غير الشائعة  
له اذ طرأ عليها تغيير غير قياسى ، وعالجه من حيث معناه المهجور ،

(١) الاتباع والمزاوجة ٣٥ ، ٣٧ ، ٧٤ .

(٢) الكتاب ١ : ٢٤١ .

(٣) الطبقات ٤٣٤ .

أو الباقي : المعروف منه وغير المعروف ، والمترادفات ، والمعاني المتقاربة مع شيء من التباعد . وعالج العبارات المركبة ، وخاصة ذات الصبغة الأدبية العالية ، مع شيء من الغرابة .

وأدى به ذلك إلى الانفراد بكثير من الألفاظ ، لم يشاركه أحد في روايتها عن العرب ، كما رأينا ونرى في قول ابن جني (١) : « لم يأت فيما عينه ولامه من موضع واحد ( فعلت ) إلا حرفان فيما علمت ، وهما لببت فانت لبيب ، حكاه يونس . قال لي أبو علي : قال أبو إسحاق : سألت عنها ثعلبا فلم يعرفها . وحكى قطرب : شررت ، في الشر . وإنما تجنبوا ( فعلت ) بالضم في المضاعف استثقالا للضمة مع التضعيف . فأما حبذا فأصلها لعمرى حبيب إلا أنها لما لزمّت الإدغام فلم يظهر تضعيفها احتملت لذلك . وقد قالوا أيضا : دمت فانت تدم دامة » . وزاد ابن خالويه (٢) إلى هذه الأفعال عززت الشاة : إذا قل لبنها .

ونستبين من هذه الأقوال أن منهج يونس كان يعتمد على رصد هذه الظواهر التي تخضع لها الألفاظ والعبارات العربية ، لأنه عدها من الظواهر اللغوية . فما هذه الغرابة التي تتسم بها إلا لكونها ليست على اللغة الشائعة ، وإنما اللغات القبلية الأخرى . وقد أكثر من الإشارة إلى أن ما يتحدث عنه « لغة » دون أن يبين إلى أية قبيلة تنتمي . ولكنه فعل ذلك في بعض الأحيان ، فأبان أنه عنى بلغة تميم والحجاز وأهل العالية وهذيل ويربوع ( من بطون تميم ) واليمامة وسليم .

وأعلن أنه يورد بعض ما يقول عن أستاذه أبي عمرو بن العلام وعيسى بن عمر ، وعن مصدره الرئيسي رؤبة . وأخذ بعضه الآخر

---

(١) شرح المنصف ١ : ٢٤٠ . وانظر الزهر ٢ : ٩٤ . يريد وزن كرم .

(٢) كتاب ليس ٢٦ .

عن الأعراب . قال أبو عمر (١) : « سمعت يونس قال أعرابيا . . فقال الأعرابي : كان أبي يقول : انى لأبغض الامعة من الرجال . فقالوا له : ما الامعة ؟ فقال : الذى يقول : من يذهب حتى أذهب معه » .

والحق أن يونس نفسه كان يميل الى ايراد ما يورد من ألفاظ وتفسيرات في شكل اخبارى أو حوارى ، وكأنما وقعت بينه وبين الأعراب أحداث فعلا ، وفي ظنى أن كثيرا منها من تخيله . قال (٢) : « صنع رجل لأعرابى ثريدة ليأكلها ، فقال له : لا تسقعها ولا تشرمها ولا تقعرها . قال له : فمن أين آكل لا أبالك ؟ قال : كل من جوانبها . معنى تسقعها : تقشر أعلاها . وتشرمها : تخرمها . وتقعرها : تأكل من أسفلها » . وقال الأصمعى عن يونس (٣) : « سمعت أعرابيا يذكر مصدقا لهم في كلامه قال : فلمقه بعد ما نمقه : أى محماه بعد ما كتبه » .

فهو يحس أن ذلك يقرب الألفاظ ، ويحبب الطلبة فيها ، ويسر حفظها . بل انه ليروى الطرف التى لا تحتوى على الغريب ولكنها تحبب فيه . قال (٤) : « كان جبلة بن عبد الرحمن يخرج الى طباخه الرقاع يستدعى بها الطعام ، وفيها الألفاظ الغريبة الحوشية ، فلا يدرى الطباخ ما فيها حتى يمضى بها الى ابن أبى اسحاق ويحيى بن يعمر وغيرهما يفسرون ما فيها من الألفاظ . فاذا عرف الطباخ ما فيها أتاه بما استدعاه . فقال له يوما : ويحك انى أصوم معك ! فقال له الطباخ : سهل كلامك حتى يسهل طعامك . فيقول : يا ابن اللخناء أفأدع عربيتى لعيك » .

(١) شرح المنصف ٣ : ١٨ .

(٢) ذيل الأمالى ١١٩ . مجالس ثعلب ٨ ، ٢٦ . المزهرة ١ : ١٥٢ . المخصب

٥ : ١٣ . اللسان ١٠ : ٦٩ ، ١٥ : ٢١٤ .

(٣) الجوهرة ٣ : ١٦٣ . أبو الطيب : الأضداد ٦٤٩ .

(٤) ابن خلكان ٢ : ٤١٧ .

وتبين لنا أن يونس كان يمحّص الألفاظ قبل أن يحكم عليها .  
ولم يكن يأبى أن يعلن توقفه عندما يعجز عن بلوغ رأى يطمئن اليه في  
لفظ ما . قال ابن سلام (١) : « سألت يونس عن قول الله جل وعز  
\* كى لا يكون دولة \* فقال : قال أبو عمرو بن العلاء : الدولة في  
المال ، والدولة في الحرب . قال : وقال عيسى بن عمر : كلتاها في  
الحرب والمال سواء . قال : أما أنا فوالله ما أدري ما بينهما » .

وبلغ من تمحيصه للألفاظ التي يدرسها أن أنكر مجموعة وصلت  
اليه ممن يجعلهم من الأعراب ، وأخذ على رؤبة وأبيه اشتقاقات  
اشتقاقها على غير القياس عنده ، حتى ضاق به رؤبة ، وقال له  
ما ذكرته سابقا . وتقد الألفاظ بعض الشعراء الذين أثنى عليهم . قال  
أبو الفرج (٢) : « سمعت ابن الأعرابي يقول : سئل يونس عن قول  
ابن قيس الرقيات :

ما مر يوم الا وعندهما لحم رجال أو يالفسان  
فقال يونس : يجوز يولغان ، ولا يجوز يالفان . ف قيل له : فقد  
قال ذلك ابن قيس الرقيات ، وهو حجازى فصيح . فقال : ليس  
بفصيح ولا ثقة ، شغل نفسه بالشرب بتكرير » .

لا عجب إذن أن نرى يونس يشغل مرتبة لا تقل عن مرتبة أكابر  
علماء اللغة ، وأن يناقشهم ، فيأخذ عليهم أشياء ، وتؤخذ عليه  
أشياء . حدث محمد بن سلام عنه أنه قال (٣) : « النحويون يغلطون  
في ثلاثة أشياء : يقولون في نكاح أم خارجة : خطب ، فتقول : نكح ،  
وانما هو نكح ؛ ويقولون : ابنة الخس ، وانما هو الأخس مثل  
الأرز ؛ ويقولون : ليس لحاقن رأى ، وانما هو ذهن » .

---

(١) اصلاح المنطق ١٢٩ . الزهر ٢ : ٢٩٩ . في المال بضم الدال ، والحرب  
بفتحها .

(٢) الأغاني ٥ : ٨٨ .

(٣) المبرد : الفاضل ١١٦ . الكامل ٤٠٧ .

وخطأ، استأذه عيسى مرة ، قال محمد بن سلام (١) : « قلت ليونس بن حبيب : ان عيسى بن عمر قال : صحف أبو عمرو بن العلاء في الحديث : ( اتقوا على أولادكم فحمة العشاء ) فقال بالفاء وإنما هي بالقف . فقال يونس : عيسى الذي صحف ليس أبا عمرو ، وهي بالفاء كما قال أبو عمرو لا بالقف ، كما قال عيسى » .

وخطأ استأذه أبا عمرو في مرة أخرى . قال ابن سلام (٢) : « قال لي يونس بن حبيب : كان عيسى بن عمر يتحدث في مجلس فيه أبو عمرو بن العلاء . فقال عيسى في حديثه : ضربه فحشت يده ، بالضم . فقال أبو عمرو : ما تقول يا أبا عمرو ؟ فقال عيسى : فحشت يده . قال أبو عمرو : فحشت يده . قال يونس : والتي رده عنها جيدة ، يقال : حشت يده بالضم ، وحشت بالفتح ، وأحشت » .

وأزال عدة ظنون بالخطأ كانت تدور حول أبي عمرو (٣) .

ولكنه لم يسلم مما يؤخذ عليه . فقد سبق أن رأينا تلميذه سيبويه (٤) يضعف الصيغة التي رواها في الفعل يكع . كذلك خطاه تلميذ آخر له في أحد الأفعال أيضا . قال أبو حاتم (٥) : « قال لي أبو زيد الأنصاري : سألتني الحكم بن قنبر عن تعاهدت ضيعتي أو تعهدت ، فقلت : تعهدت ، لا يكون إلا ذلك . فقال لي : فائبت لي على هذا إذا سألك يونس فقل نعم . وكان الحكم بن قنبر سأل يونس فقال : تعاهدت . فلما جئت سأله ، فقال يونس : تعاهدت ، فقلت : لا . وكان عنده ستة من الأعراب الفصحاء فقلت : سئل هؤلاء . فبدأ بالأقرب إليه فالأقرب ، فسألهم واحدا واحدا ، فكلهم

(١) المزهر ٢ : ٣٦٠ .

(٢) مجالس العلماء ١٥٧ .

(٣) العسكري ٧٤ . أبو الطيب ١٩ . المزهر ٢ : ٣٩٩ .

(٤) ابن السراج ٦١ ظ .

(٥) السيرافي ٤٢ .

قال : تعهدت . فقال : يا أبا زيد ، رب علم كنت سببه ، أو شيئاً نحو هذا » . وعاب عليه أبو زيد أيضاً اتساعه في اللغات (١) .

ولكن ذلك لا يجعلنا نفرض من مكانة يونس ، التي اغترف بها أهل اللغة أنفسهم . قال بعض الأعراب له (٢) وقد استحسّن جواباً له : قضيت لك بالفقه ، أي الفطنة . وروى يونس (٣) : « سألتني جندل ابن حبيد الراعي : ما معنى قول الراعي :

يبيت الحية النضناض منه مكان الحب يستمع السراويل ما الحب ؟ فقلت : القرط . فقال : خذوا عن الشيخ فإنه عالم » .

بل ساوى بعض العلماء بين يونس وأبي زيد نفسه . قال المبرد (٤) : « كان يونس من باب أبي زيد في العلم باللغات » . ويكفي للتدليل على دلالة هذا الحكم ومداه أن أورد القول التالي ، الذي كان شائعاً في أوساط البصرة عن لغوييها . كان يقال (٥) : « كان الأصمعي يحفظ ثلث اللغة ، وأبو زيد ثلثي اللغة ، والخليل بن أحمد نصف اللغة ، وعمرو بن كركرة الأعرابي يحفظ اللغة كلها » .

### التحivo

ان أردنا أن نطلق على يونس بن حبيب لقباً علمياً واحداً لا نعدوه ، لم نحتر ، ولم نكثر البحث ، فقد كفانا تلاميذه مؤونة ذلك ، واقتصروا على تلقيبه بالنحوى .

واذ كان الأمر كذلك ، وكان الرجل من المؤلفين ، كنا نتوقع أن

(١) الزبيدي : الطبقات ١٨٢ .

(٢) شرح القصائد السبع الطوال ٢٦٥ .

(٣) ابن دريد : الاشتقاق ٣٨ .

(٤) السيرافي ٤١ . النزهة ٨٦ . الفهرست ٥٤ .

(٥) السيوطي : البنية ٢٥٤ .

يخلف لنا كتاباً أو أكثر ، يدون فيه معارفه وآراءه النحوية . ولكن ذلك لم يكن ، فان كتبه التي نعرف عناوينها تستهدف اللغة أكثر من النحو . ويبدو أنه شابه معاصره الخليل بن أحمد في الاقتصار على تدريس النحو ومناقشة التلاميذ وعدم التدوين فكانت النتيجة عند الرجلين واحدة : أن آراءهما النحوية لم تصل إلينا إلا عن طريق تلميذ نابه ، غنى بالنحو كل العناية ، وسمى إلى ابانة آراء السابقين ، وتدوينها ، ومناقشتها ، أعنى سيبويه في الكتاب . فنحن لا نعرف مصدراً لآراء يونس غير الكتاب . وكان القدماء أنفسهم يشكون في كل رأى ينسب إلى يونس ، ما لم يكن مستقى من الكتاب . فقد روى المبرد في المقتضب رأياً عزاه ليونس ، فبحث عنه على ابن عيسى الرماني في الكتاب . وعندما لم يعثر عليه ، عقب عليه قائلاً (١) : « ما أدري من أين لأبي العباس هذه الحكاية عن يونس ؟ ! » .

فالمصدر الرئيسي لما أنقله في هذا الفصل من آراء يونس ، بل المصدر الوحيد ، كتاب سيبويه ، ثم أرفده بما أجده من مناقشات في غيره من كتب النحو .

ويبدو أن سيبويه أكثر من الأخذ عن يونس ، وكان يرفع من قدره ، فأكثر من النقل عنه في الكتاب ، حتى ناهزت المرات التي ذكر اسمه فيها مئتي مرة (٢) . وطبيعي أن لا تكون هذه المرات ممثلة لجهد يونس النحوي كله ، لأن الطبيعي ألا يشير سيبويه إلى اسمه إلا حين يشد أو يخالف غيره أو ينفرد أو يأتي بأمر يستحق التنويه .

ونحن عندما ننظر فيما رواه سيبويه عن يونس بعد استقصائه

(١) مازن المبارك : الرماني النحوي ١٤٦ .

(٢) مهدي المخرومي : الخليل بن أحمد ٢١٩ . على النجدي ناصف :

سيبويه ٦٠ .

نجد فيه ظواهر عدة ، تيسر علينا تصنيفه أصنافا مختلفة . واذ كان المهم في نظرنا أن نبرز جهد يونس الخاص ، الذى يدل على تفكيره الذى انفرد به عن غيره ، فأننى ألجأ الى ما يساعد على ذلك من تصنيف .

فأجد أول ما أجد مجموعة من الآراء النحوية تحدث بها يونس حقا ، ولكنها ليست من ابتكاره ، وانما من ابتكار أحد شيوخه . فيونس راوية لا مبدع لها ، وان كان اقتصاره على روايتها دون التعقيب عليها يدل على أنه مرتض لها . ولكن دلالتها عليه ثانوية ، ولذلك أكشف عنها ، وأورد أمثلتها ، دون أن أطيل فى مناقشتها واستنطاقها .

واقدم من روى عنه من شيوخه عبد الله بن أبى اسحاق ، الذى تتبع أخباره مع الفرزدق خاصة . وأمثلة لما رواه عنه بقوله (١) : « فان سميت المؤنث بـ « عمرو » أو « زيد » لم يجر الصرف ؛ هذا قول أبى اسحاق وأبى عمرو ، فيما حدثنا يونس » .

وقال الأستاذ على النجدى ناصف (٢) : « أما جملة ما نقل سيبويه عن ابن أبى اسحاق فكانت أربعا كلها من النحو والاستشهاد له ، وسنده فى الرواية هنا يونس ، كما كان سنده هناك فى الرواية عن أبى عمرو » .

وهذا القول فيه تعميم جائر . فليس صحيحا أن كل ما رواه سيبويه عن ابن أبى اسحاق كان عن طريق يونس . فان سيبويه أورد نقلين عنه مهملين ، دون أن يلتفت أدنى التفات الى من أخذهما عنه (٣) ، وأورد نقلا ثالثا مكتفيا بكلمة مبهمة تبين أنه لم يأخذه عن الرجل مباشرة ، قال (٤) : « ولو قلت : اياك الأسد ، تريد من

---

(١) الكتاب ٢ : ٢٣ .

(٢) سيبويه ٦٦ .

(٣) الكتاب ١ : ٢٥٦ ، ٤٢٦ .

(٤) الكتاب ١ : ١٤١ .

الأسد ، لم يجز كما جاز في ( أن ) إلا أنهم زعموا أن ابن أبي اسحاق  
أجاز هذا البيت في شعر :

اياك اياك المراء فانه الى الشر دعاء وللشر جالب  
كأنه قال : اياك ، ثم أضمر بعد اياك فعلا آخر فقال : اتق  
المراء .

كذلك يوجد في الكتاب نقول كثيرة تحوى أقوالا لأبي عمرو  
ابن العلاء ، أخذها سيبويه عن يونس ، مثل قوله (١) : « زعم يونس  
أن أبا عمرو كان يقول : دارى من خلف دارك فرسخان ؛ يشبهه  
بقولك : دارك منى فرسخان ، لأن ( خلف ) ها هنا اسم ، وجعل  
( من ) فيها بمنزلتها في الاسم » .

ولكننى لا أستطيع هنا أيضا أن أعمم القول بأن سنده في الرواية  
عن أبي عمرو هو يونس وحده ، كما قال الأستاذ على النجدي  
ناصر ، واعتمد في ذلك على ما قاله هو في كتابه (٢) : « وقد نقل  
سيبويه عن أبي عمرو ٤٤ مرة ، يذكر في أكثرها أن الرواية عن  
يونس ، ويضمّر في أقلها السند أو يفعله جملة » ، وما قاله أيضا (٣) :  
« يقولون أن سيبويه أخذ الحروف عنه ( يريد عن أبي عمرو ) .  
وفي الكتاب دليل على ذلك » . فان أقواله هذه تجعلنى لا أؤيده في  
قوله السابق ولا في قوله الآتى (٤) : « أما النحو فالراجح أنه لم يأخذه  
عنه ، فلم أر أحدا ذكره ، وليس في الكتاب دليل عليه » .

---

(١) الكتاب ١ : ٢٠٨ .

(٢) سيبويه ٩٤ .

(٣) سيبويه ٩٥ .

(٤) سيبويه ٩٥ .

وأثنى سيبويه ببعض الأقوال ، التي أعلن أن أبا عمرو والخليل ويونس اتفقوا عليها . جاء في الكتاب (١) : « إذا لقبت مفردا بمفرد أضفته الى الألقاب ، وهو قول أبي عمرو ويونس والخليل ، وذلك قولك : هذا سعيد كرز ، وهذا قيس قفة قد جاء ، وهذا زيد بطة . . فاذا لقبت المفرد بمضاف ، والمضاف بمفرد ، جرى أحدهما على الآخر كالوصف ، وهو قول أبي عمرو ويونس والخليل ، وذلك قولك : هذا زيد وزن سبعة ، وهذا عبد الله بطة . . » .

ولم يصرح سيبويه : هل أخذ هذه الآراء من فم أبي عمرو أو من أحد تلاميذه . ولكن شهرتها وتداولها بين أكثر من تلميذ من تلاميذ أبي عمرو يجعلنا نرجح معرفة يونس بها ، وبصدورها عن شيخه ، ونرجح أن قوله هذا لا يعدو أن يكون ترديدا لما قال شيخه أمامه ، وموافقة عليه .

وأورد سيبويه مجموعة من أقوال شيخه : عيسى بن عمر ، وأبي الخطاب الأخفش ، وكشف أن يونس قال له ما يوافقها . جاء في الكتاب (٢) : « قد يقول بعض العرب : أرم ، في الوقف ، واغز ، واخش ؛ حدثنا بذلك عيسى بن عمر ويونس . وهذه اللفظة أقل اللفتين . جعلوا آخر الكلمة حيث وصلوا الى التكلم بها بمنزلة الأواخر التي تحرك مما لم يحذف منه شيء ، لأن من كلامهم أن يشبهوا الشيء بالشيء وإن لم يكن مثله في جميع ما هو فيه » . وجاء أيضا (٣) : « ما يجوز فيه الرفع مما ينتصب في المعرفة ، وذلك قولك : هذا عبد الله منطلق ؛ حدثنا بذلك يونس وأبو الخطاب عن يوثق به من العرب » .

والظاهر من كلام سيبويه أن كلا من الرجلين ذكر له رأيه على

(١) الكتاب ٢ : ٤٦ . وانظر ٧ ، ١١ .

(٢) ٢ : ٢٧٨ .

(٣) ١ : ٢٥٨ .

حدة . يؤكد لنا ذلك قول سيبويه في نقل آخر (١) : « يقوى ذلك أن يونس وعيسى جميعا زعما . . . » ، وقوله (٢) زعم أبو الخطاب أن العرب الموثوق بهم يقولون : أنا هذا ، وهذا أنا . . . وحدثنا يونس أيضا تصديقا لقول أبي الخطاب : أن العرب تقول : هذا أنت تقول كذا وكذا ، لم يرد بقوله : هذا أنت ، أن يعرفه نفسه كأنك تريد أن تعلمه أنه ليس غيره ، هذا محال ، ولكنه أراد أن ينبهه كأنه قال : الحاضر عندنا أنت ، والحاضر القائل كذا وكذا أنت . »

واذن فلم يكن يونس هو الذى نقل هذه الأقوال الى سيبويه ، بل سمعها سيبويه من أفواههم في غالب الظن . ولكن الرجلين كانا شيخين ليونس ، فهل سمع هو أيضا هذه الأقوال منهما . ان كان الأمر كذلك ، كان ما رواه سيبويه عنه مجرد اتفاق مع ما سمعه من شيخه . والا فهو رأى خاص ليونس ، اتفق مع آراء الرجلين . ولا شك أن من العسير أن تؤكد أحد الظنين ، وان كان الظن الأول أقرب الى الاحتمال .

وننتهى بهذا من الأقوال التى أعلن سيبويه أن يونس رواها له عن واحد من شيوخه ، والتى رجحنا أنها كذلك ، والتى يوجد احتمال أنها ليست من ابتداع الرجل . وننتقل الى هذا النوع الأخير من الأقوال ، أو التى تدل ظواهر الأمور أنها منه ، اذ اننا لا نملك الدليل القاطع هنا أيضا أن يونس لم يكن مجرد راوية لهذه الأقوال أو بعضها فـير أنه أغفل اسم الشيخ الذى يروى عنه . وكثيرا ما فعلوا ذلك . ومهما يكن من أمر ، فنحن مضطرون الى الاعتماد على ما عندنا من أقوال ، مهما كانت الأمور التى تشوبها . وانما الجأنا الى ذلك يونس نفسه اذ لم يعن بإصدار كتاب يحفظ لنا أقواله . ولما كنا قد بدأنا الحديث بما رواه عن شيوخه ، كان واجبا

---

(١) ١ : ١٨٢ .

(٢) ١ : ٣٧٩ .

علينا أن نستمر فيه ، وتبين أن الرجل لم يبلغ شخصيته أمامهم ،  
وتقبل كل ما قالوا دون تمحيص أو مناقشة . بل كل الدلائل تدل  
أنه كان يمعن الفكر فيما يسمع ، وأن هذا الفكر كان يؤدي به كثيرا  
الى الموقف المستقل .

وكما بدأنا بما رواه عن عبد الله بن أبي اسحاق أنفا ، نبدا هنا  
بما خالفه فيه . ويبدو أن أعجاب يونس بالفرزدق جعله يعارض  
شيخه في موقفه منه أو لا يتابعه فيه على الأقل ، وخاصة أن الصلة  
بين الشيخ والتلميذ لم تدم طويلا فيما يبدو ، أو لم تشتد أو اصرها .  
فتوقف مرة ، موافقا في ذلك شيخه الآخر الذي كان يحترمه كل  
الاحترام . قال ابن سلام (١) : « قال يونس : وقال ابن أبي اسحاق  
في بيت الفرزدق :

وعض زمان يا ابن مروان لم يدع

من المال الا مسحتا أو مجرف

.. قال أبو عمرو بن العلاء : لا أعرف لها وجها . وكان يونس  
لا يعرف لها وجها . قلت ليونس : لعل الفرزدق قالها على النصب  
ولم يأبه . فقال : لا ، كان ينشدها على الرفع ، وأنشدنيها رؤية  
ابن العجاج على الرفع » .

وعارض يونس ابن أبي اسحاق في مرة أخرى ، اذ اهتدى الى  
وجه من التعليل لم يفتن اليه شيخه ، قال ابن سلام (٢) : « أخبر  
يونس أن ابن أبي اسحاق قال للفرزدق في مديحه يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين بشمال الشام - تضربنا

بحاصب كنديف القطن منشور

(١) الطبقات ١٩ . الموشع ١٠١ .

(٢) الطبقات ١٦ . الموشع ٩٩ .

على عمائنا يلقى وأرحلنا -

على زواحف تزجي ، مخها ريسر

قال ابن أبي اسحاق : أسأت ، إنما هي ( رير ) ، وكذلك قياس النحو في هذا الموضع . وقال يونس : والذي قال جائر حسن . . « ذهب يونس الى وقوع تقديم وتأخير ، والترتيب الطبيعي للعبارة : رير مخها .

وتعطينا هذه المعارضة واحدة من الخصائص التي تفرق بين الرجلين . فقد وضح أن ابن أبي اسحاق كان يسرع الى تخطئة المتكلم مهما كانت فصاحته ، وكان نقاؤه العربي . أما يونس فيظهر غير ذلك ، بل يبحث أولا عن المناقضة التي تجعله يحكم بالسلامة أولا ، فان عجز عن العثور عليها ، توقف حائرا ، ولم يهرع الى التخطئة .

وفي كتاب سيبويه مواضع تدل على أن يونس عارض أستاذه في غير شعر الفرزدق ، وفي آراء لم ينفرد بها بل تابعه فيها بعض أئمة النحو . جاء في الكتاب (١) : « ومن هذا الترحم . والترحم يكون بالمسكين والبائس ونحوه ولا يكون بكل صفة ولا كل اسم ، ولكن ترحم بما ترحم به العرب . وزعم الخليل أنه يقول : مررت به المسكين ، على البذل ، وفيه معنى الترحم . وبدله كبذل : مررت به أخيك . . وكان الخليل يقول : إن شئت رفعتك من وجهين ، فقلت : مررت به البائس ، كأنه لما قال : مررت به ، قال : المسكين هو ، كما يقول مبتدئا : المسكين هو ، والبائس أنت . وان شاء قال : مررت به المسكين . . وفيه معنى الترحم كما كان في قوله : رحمة الله عليه ، معنى رحمه الله . فما يترحم به يجوز فيه هذان الوجهان ، وهو قول الخليل . . وأما يونس فزعم أنه ليس يرفع

---

(١) ١ : ٢٥٥ .

شيئا من الترحم على اضممار شيء يرفع ، ولكنه ان قال : ضربته ،  
لم يقل أبدا الا المسكين ، يحمله على الفعل ؛ وان قال : ضرباني ،  
قال : المسكينان ، حمّله أيضا على الفعل ، وكذلك : مررت به  
المسكين ، يحمل الرفع على الرفع ، والجرح على الجرح ، والنصب على  
النصب ، ويذهب أن الرفع الذي فسرنا خطأ ؛ وهو قول الخليل  
وابن أبي اسحاق .

وروى سيبويه (١) واحدة من مسائل النعت السببي اختلف  
فيها يونس مع أستاذه عيسى بن عمر . فقد اتفق الاثنان على التفرقة  
فيه بين أنواع شتى . فرفعا ما كان غير منون دالا على علاج يرى  
كالضارب والكاسر . أما الثابت غير الدال على علاج يرى كالأخذ  
والمخالط فاتفقا على نصبه اذا كان دالا على عمل واقع . ثم اختلفا  
في غير الواقع منه فذهب عيسى الى تبعيته لما قبله ، ويونس الى  
أنه مرفوع . وقد خالفهما سيبويه فذهب الى أن الصفة الدالة على  
العمل تتبع ما قبلها في الاعراب ، سواء أكانت منونة مثل ( مررت  
برجل مخالط بدنه داء ) أم غير منونة وأراد المتحدث معنى التنوين  
مثل ( مررت برجل مخالطه داء ) ، وسواء أكانت الصفة دالة على  
علاج يرى أم دلت على عمل ثابت ليس فيه علاج ، وسواء أدلت على  
عمل واقع أم عمل غير واقع . وأورد من الأدلة ما أبطل كل حجة  
للرجلين .

ولم يقف يونس عند هذا بل خالف أقرب شيوخه الى قلبه ،  
وأعظمهم في عينه : أبا عمرو بن العلاء . ولم يخالفه جاهلا برأيه ،  
بل كان عارفا به وراويا له . جاء في الكتاب (٢) : « قال يونس : من  
صرف ( هنداء ) قال : هذه هند بنت زيد ، فنون ( هنداء ) لأن  
ذا موضع لا يتغير فيه الساكن ولم تدركه علة ، وهكذا سمعنا من

(١) ١ : ٢٢٨ .

(٢) ٢ : ١٤٨ .

العرب . وكان أبو عمرو يقول : هذه هند بنت عبد الله ، فيمن  
صرف . ويقول : لما كثر في كلامهم حذفوه كما حذفوا ( لا أدر )  
و ( لم يك ) و ( لم ابل ) و ( خذ ) و ( كل ) وأشسباه ذلك ، وهو  
كثير . ولم يتدخل سيبويه في القولين ، مقتصرًا على حكايتهما .  
ولعل السبب جواز الرايين عنده ، اذ روى كل من الرجلين عن  
العرب ، فذكر أحدهما القاعدة العامة ، وذكر الآخر ما يفعلونه على  
غير قياس للتخفيف .

وخالف يونس (١) استأذه في النسب الى الأسماء المعتلة الآخر  
بالياء أو الواو مع سكون ما قبلهما . فقد روى هو نفسه أن أبا عمرو  
كان يقول في النسب الى ظبية : ظبي . وخالفه وكان يقول في :  
ظبية : ظبوى ، وفي دمية : دموى ، وفي فتية : فتوى .

وقد فصل سيبويه المسألة فكشف عن جميع أركانها . فذكر  
أن هذه الأسماء اذا كانت خالية من تاء التانيث اتفق جميع النحاة في  
النسب اليها ، فقالوا في ظبي : ظبي ، وفي غزو : غزوى . وعلل  
سيبويه ذلك بأن حرف العلة في هذه الألفاظ جرى مجرى الألفاظ  
الصحيحة ولم يعل . وعلله الرضى الاستراباذى (٢) بحصول الخفة  
بسكون العين وصحتها وعدم ما يجرىء على التغير .

فاذا اتصلت تاء التانيث بها اختلف النحاة . اذ لم يفرق أبو عمرو  
بين الخالي من التاء والمتصل بها ، وجعل النسب الى ظبية : ظبي ،  
والى غزوة : غزوى ، أيضا . وكان تعليق سيبويه على هذا الراى  
أنه القياس ، ولا ينبغى أن يكون القياس الا هذا . وعلله بأننا عدنا  
الكلمة مثل الكلمات غير المعتلة ، وهذه الكلمات لا يؤثر فيها وجود  
تاء التانيث أو خلوها منها ، فكذلك ما مائلها من كلمات معتلة .

(١) الكتاب ٢ : ٧٤ . الخصائص ٢ : ١٠٦ .

(٢) شرح الشافية ٢ : ٤٨ .

أما يونس فبخالف بين الكلمة عند دخول التاء عليها ، وقال اننا اذا نسبنا الى ظبية قلنا : ظبوى ، والى فتية قلنا : فتوى ، والى دمية قلنا : دموى ، من اليائي ؛ واذا نسبنا من الواوى الى غزوة قلنا : غزوى ، والى عروة : عروى ؛ فلا فرق عنده بين الواوى واليائي .

وكان المعقب على الرايين فى هذه المرة الخليل بن أحمد ، فأعلن أن الأول اقيسهما وأعربهما . ولكنه لم يرفض رأى يونس جملة وتفصيلا ، بل قبله فى الكلمات اليائية . وعللها بأنهم شبهوا فعلة بفعلة ، وفعلة بفعلة ، وفعلة بفعلة (١) ، لأنك لو بنيت فعلة من بنات الواو لصارت ياء ، فلو أسكنت العين على ذلك المعنى لثبتت ياء ولم ترجع الى الواو ، فلما رأوها متشابهة الأواخر جعلوا النسب اليها واحدا . واعتمد فيه أيضا على السماع من العرب إذ أنهم نسبوا الى بنى البطية فقالوا بطوى .

وقصر الرضى الاسترإباضى هذا التغير على الثلاثى لأن مبناه على الخفة ، فطلبت بقدر الامكان ، وعلى ما فيه التاء من الكلمات ، لأن حذفهم التاء عند النسب جراًهم على تحريك الساكن ، مع قصد التفرقة بين المذكر والمؤنث . فأجروا التغير على الكلمات اليائية ، لتخف بقلب الياء واوا ثم حملوا الكلمات الواوية عليها طردا للباب .

ورفض الخليل رأى يونس فى الكلمات الواوية ، وقال : لا أقول فى غزوة الا : غزوى ، وفى غدوة الا غدوى . وعلل رأيه بأن فعلة وفعلة من الواوى لا تشبه فعلة وفعلة ؛ وأن فعلة من الواوى اذا كانت واحدة فعل تكون بالياء ، ولو لم تكن على فعل . للزم الحرف الذى قبلها التحريك ولم تشبه غدوة ، وان أسكنت ما قبل الواو فى فعلة من الواوى الذى ليس واحده فعل فحذفت الياء لم تغير الواو لأن ما قبلها ساكن . واعتمد أيضا على السماع فذكر أن العرب

(١) الاولياء بفتح الفاء ، والثانيتان بضمها ، والثالثتان بكسرها ، والعين الاولى فى كل مجموعة ساكنة وفى الثانية متحركة .

حين نسبوا الى بنى جروة قالوا : جروى . ووافقه سيبويه في رايه  
هذا .

وزاد الاستراباذى علة أخرى تفرق بين اليائى والواوى من هذه  
الكلمات ، قال : « ذوات الياء بتحريك عينها تنقلب ياؤها واوا ،  
فتخف شيئاً ، وان كان يحصل بالحركة أدنى ثقل ، لكن ما يحصل  
بها من الخفة أكثر مما يحصل من الثقل . وأما ذوات الواو فيحصل  
بتحريك عينها ثقل من دون خفة » .

واختلف يونس (١) مع أستاذه عيسى وأبى عمرو في تصغير معتل  
العين واللام ، وأدلى برأى فضله سيبويه على ما جاء به الرجلان .  
ذهب عيسى الى أن تصغير أحسوى هو : أحى ، مصروفاً . ولكن  
سيبويه خطأ هذا القول ، وقال : « لو جاز ذا لصرفت ( أصم ) لأنه  
أخف من أحمر ، وصرفت رأس اذا سميت به ولم تهمز فقلت :  
أرس » . وذهب أبو عمرو الى أن تصغيره هو : أحى . فخطأه  
سيبويه أيضاً وقال : « لو جاز ذا لقلت في عطاء : عطى ، لأنها ياء  
ك هذه الياء وهى بعد ياء مكسورة ، ولقلت في سقاية : سقية ،  
وشاو : شوى » . أما يونس فذهب الى أن تصغيره هو : أحى .  
فارتضى سيبويه هذا الرأى وعقب عليه قائلاً : « هو القياس  
والصواب » ، وعلل ذلك بقوله : « لأن هذه اللام ( يريد لام الكلمة )  
اذا كانت بعد كسرة اعتلت واستثقلت في . . غير المعتل . فلما كانت  
كسرة في ياء قبلها ياء التحقير ازدادوا لها استثقالا فحذفوها . .  
ولا تصرفه لأن الزيادة ثابتة في أوله ولا يلتفت الى قلته كما لا يلتفت  
الى قلة يضع » .

نتبين مما سبق أن يونس بن حبيب عنى بما كان لشيخه من  
آراء لغوية ونحوية ، فاحتفظ بها ورواها لتلاميذه . وتسود هذه  
المرويات الظواهر التى سادت مروياته فى الحقول الأخرى . فقد كان  
أكثر اقبالاً على أبى عمرو ، ورواية عنه ، واتفاقاً معه . ففاق ما رواه

(١) الكتاب ٢ : ١٢٢ .

عنه كل ما روى عن بقية شيوخه مجتمعين ، بل بلغ أضعافه .  
وبالرغم من إعجابه بعبد الله بن أبي إسحاق ، وقف منه موقف الند ،  
وعارضه في كثير مما قاله ، معارضة هامة ، إذ تعتمد على نظرة كل  
من الرجلين إلى التراث العربي . ووقف من عيسى موقفا متوسطا ،  
فلم يقلل من الرواية عنه ويكثر من الاعتراض عليه كما فعل مع  
ابن أبي إسحاق ، ولم يحتف به احتفاءه بأبي عمرو : أما روايته  
عن أبي الخطاب الأخفش فمن القلة بحيث لا تيسر لنا سبيلا إلى  
تصور العلاقة بينهما .

وحان الوقت الآن لنضع يونس بين معاصريه ، أو إن تحريتنا  
الدقة : لنضعه إلى جوار تربه الخليل بن أحمد ، ليلقى كل منهما  
الضوء على الآخر ، ويكشف من جوانب شخصيته ما لا تكشفه  
دراسة الفرد على ضوء من شيوخه .

وأتبع النهج نفسه الذي اتبعته في هذا الفصل كله . فاستهل  
الحديث بالآراء التي اتفق فيها الرجلان . وقد تبين لنا أنهما اتفقا  
في بعض الآراء التي أخذها منفردين أو مجتمعين عن شيخهما  
أبي عمرو . ولكن يتجلى من كتاب سيبويه أنهما اتفقا أيضا في كثير  
من الآراء ، التي لا يوجد دليل أو إشارة على أنهما تلقياها عن شيخ  
لهما . مثال ذلك قول سيبويه (١) : « سألت الخليل ويونس عن  
نصب قول الصلتان العبدى :

أيا شاعرا لا شاعر اليوم مثله

جرير ، ولكن في كليب تواضع

فرعما أنه غير منادى ، وإنما انتصب على اضمار ، كأنه قال :  
يا إقائل الشعر شاعرا . وفيه معنى حسبك به ، كأنه حيث نادى  
قال : حسبك به ، ولكنه أضمه كما أضمروا في قوله : تالله رجلا ،  
وما أشبهه » . وفي بعض الأحيان وقع الاتفاق بين الرجلين في

..... (١) الكتاب ١ : ٣٢٨ ، والنظر ٣٧٢ .

النتيجة التي وصلا اليها . ولكننا لا نعرف العلل التي أدت بيونس  
إلى نتيجته ، على حين كشف سيبويه عن علل الخليل . قال (١) :  
« هذا باب ما لا يجوز أن يندب ، وذلك قولك : وارجلاه ، ويا رجلاه .  
وزعم الخليل ويونس أنه قبيح وأنه لا يقال . وقال الخليل : إنما قبح  
لأنك أبهمت ، ألا ترى أنك لو قلت : واهداه ، كان قبيحا لأنك اذا  
قدبت فانما ينبغى لك أن تفجع بأعرف الأسماء ، وأن تختص  
فلا تبهم لأن الندبة على البيان . »

وفي بعض الأحيان أعلن اتفاق الرجلين ، وأتى بالعلة مغفلة  
قلم يبين هل هي من عنده أو من عند أحد الرجلين أو من عندهما  
معاً ، ولعل الفرض الأخير أرجحها ، قال (٢) : « هذا باب ما يكرر فيه  
الاسم في حال الاضافة ، ويكون الأول بمنزلة الآخر ، وذلك قولك :  
يا زيد زيد عمرو ، ويا زيد زيد أخينا ، ويا زيد زيدنا . زعم الخليل  
ويونس أن هذا كله سواء ، وهي لغة للعرب جيدة . وقال جرير :

يا تيم تيم عـدى لا أبا لكم لا يلقينكم في سنوأة عمر  
.. وذلك لأنهم قد علموا أنهم لو لم يكرروا الاسم صار الأول  
نصباً ، فلما كرروا الاسم توكيدا تركوا الأول على الذى كان يكون  
عليه لو لم يكرروا » .

والتزم سيبويه في أكثر الأحيان الأقوال التي اتفق عليها  
الرجلان ، وعدها القياس لما تتعلق به من اقواعد ، اذ أن الكلام العربى  
الفصيح يندرج تحتها ، والعلماء الثقات لا يختلفون معها . قال (٣) :  
« أما ما جاء مثل تولب ونهشل فهو عندنا من نفس الحرف مصروف ،  
حتى يجيء أمر يبينه ، وكذلك فعلت به العرب ، لأن حال التاء

(١) الكتاب ١ : ٢٢٤ . والنظر ١ : ٤٦١ ، ٢ : ١٥٥ .

(٢) الكتاب ١ : ٢١٤ ، وانظر ٣٧٥ .

(٣) الكتاب ٢ : ٣ . وانظر ١ : ٤٧٤ ، ٢ : ١٣ ، ٤٢ ، ٩٦ ، ١٠٧ ،

١٣٣ ، ٢٨٣ ، ٤١٠ .

والنون في الزيادة ليس كحال الألف والياء لأنهما لم تكثرا في الكلام زائدين ككثرتهما ، فان لم تقل ذلك دخل عليك أن لا تصرف نهشلا ونهسرا . فهذا قول الخليل ويونس والعرب » . وقال (١) :  
« . . وهذا قول يونس والخليل ومن رأينا من العلماء » .

وكان ينافح عن رأيهما ويدحض ما خالفه من آراء ، كما فعل في الضمائر الواقعة بعد لولا ، قال (٢) : « اذا أضمرت الاسم فيه جر ، واذا أظهرت رفع . ولو جاءت علامة الاضمار على القياس لقلت ، لولا أنت ، كما قال سبحانه ( لولا أنتم لكنا مؤمنين ) ولكنهم جعلوه مضمرا مجرورا . والدليل على ذلك أن الياء والكاف لا تكونان علامة مضمر مرفوع . قال الشاعر :

وكم موطن لولاي طحت كما هوى  
بأجرامه من قلة النيق منهـوى

وهذا قول الخليل ويونس . وأما قولهم : عساك ، فالكاف منصوبة . قال الراجز :

✽ يا أبتا علك أو عساكا ✽

والدليل على أنها منصوبة أنك اذا عنيت نفسك كانت علامتك ( نى ) قال عمران بن حطان :

ولى نفس أقول لها اذا ما تنازعنى : لعلى أو عسانى  
فلو كانت الكاف مجرورة لقال : عساى . ولكنهم جعلوها بمنزلة ( لعل ) في هذا الموضع . فهذان الحرفان لهما في الاضمار هذه الحال ، كما كان للذن حال مع غدوة ليست مع غيرها ، وكما أن لات أن لم تعملها في الأحيان لم تعمل فيما سواها فهي معها بمنزلة ليس ،

(١) الكتاب ٢ : ٤٢ .

(٢) الكتاب ١ : ٣٨٨ . وانظر المسألة ٩٧ في كتاب الانصاف لابن الأثير

ص ٦٨٧ . وفي الرمانى لمازن المبارك ٢٨٧ .

فاذا جاوزتها فليس لها عمل . . وزعم ناس أن الياء في لولاي وعسانى في موضع رفع ، جعلوا لولاي موافقة للجر و ( نى ) موافقة للنصب كما اتفق الجر والنصب في الهاء والكاف . وهذا وجه ردى لما ذكرت لك ، ولأنك لا ينبغي لك أن تكسر الباب وهو مطرد تجد له وجهها ، وقد يوجه الشيء على الشيء البعيد إذا لم يوجد غيره ، وربما وقع ذلك في كلامهم .

فلا عجب إذن أن يعترف سيبويه من هذه المسائل التي اتفقا فيها . وقد اعترف بذلك في أبواب من التصغير ، فقال (١) : « وجميع ما ذكرنا قول يونس والخليل » . وقال في أبواب من النداء (٢) : « أعلم أن كل شيء ابتدأناه في هذين البابين أولا هو القياس ، وجميع ما وصفنا من هذه اللغات سمعناه من الخليل ويونس عن العرب » . وكان طبيعيا أن يختلف الرجلان في بعض المسائل ، وكل منهما على ما هو عليه من تفكير واجتهاد واستقلال بالرأى . وقد أورد سيبويه جملة من هذه المسائل التي اختلفا فيها . واقتصر في قليل منها على دور الراوية ، فلم يرجح واحدا منها على الآخر ، إذ صح لديه القولان . قال (٣) : « سألت الخليل عن قوله :

ألا رجلا جزاه الله خيرا يدل على محصلة تبیت  
افزعم أنه ليس على التمنى ، ولكنه بمنزلة قول الرجل : فهلا خيرا من ذلك ، كأنه قال : ألا تروننى رجلا جزاه الله خيرا .  
وأما يونس فزعم أنه نون مضطرا . وزعم أن قوله : ( لا نسب اليوم ولا خلّة ) على الإضطرار . . والذي قال مذهب » .

ولكن سيبويه مال في أكثر المواضع التي اختلفا فيها إلى رأى الخليل ، وفضله على رأى يونس . قال مثلا (٤) : « إذا حقرت رجلا

(١) ٢ : ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢) ١ : ٣١٨ .

(٣) ١ : ٣٥٩ .

(٤) ٢ : ١١٧ . وانظر ١٣٧ .

اسمه ( قبائل ) قلت : إقبيل ، وان شئت قلت : قبيل ، عوضا مما حذف . والألف أولى بالطرح من الهمزة لأنها كلمة حية لم تجيء للعد ، وإنما هي بمنزلة جيم مساجد وهمزة برائل ، وهى فى ذلك الموضع والمثال ؛ والألف بمنزلة ألف عداقر ؛ وهذا قول الخليل . وأما يونس فيقول : قبيل ، يحذف الهمزة اذ كانت زائدة كما حذفوا ياء قراسية وياء عفارية . وقول الخليل أحسن كما أن عفارية أحسن .

وحكم على رأي يونس فى بعض الأحيان أنه مذهب ، ولكن السماع عن العرب يخالفه . قال (١) : « سألته عن قوله : من دون ، ومن فوق ، ومن تحت . . فقال : أجروا هذا مجرى الأسماء المتمكنة لأنها تضاف وتستعمل غير ظرف . ومن العرب من يقول : من فوق ، ومن تحت ، يشبهه بقبل وبعد . . وكذلك من أمام ، ومن قدام ، ومن وراء . . وزعم أنهم تكرات كقول أبى النجم :

✽ يأتى لها من أيمن وأشمل ✽

وزعم أنهم تكرات اذا لم يضمن الى معرفة كما يكون أيمن وأشمل نكرة . وسألنا العرب فوجدناهم يوافقونه . . وأما يونس فكان يقول : من قدام ، ويجعلها معرفة . وزعم أنه منعه من الصرف أنها مؤنثة . . وهذا مذهب ، إلا أنه ليس يقوله أحد من العرب .

وبالرغم من ذلك توجد بعض المواضع التى فضل فيها سيبويه قول يونس على قول الخليل . وعلى ذلك بأن رأى الخليل خالف المؤلف من كلام العرب ، قال فى تصغير سفرجل وفرزدق ونحوهما (٢) : « فتحقير العرب هذه الأسماء سفيرج وفريزد . . وان شئت ألحقت فى كل اسم منها ياء قبل آخر حروفه عوضا . وإنما حملهم على هذا أنهم لا يحقرون ما جاوز ثلاثة أحرف إلا على

(١) ٢ : ٤٦ - ٧ .

(٢) ٢ : ١٠٦ .

زنته وحاله لو كسروه للجمع ، إلا أن نظير حرف اللين الثالث الذي في الجمع الياء في التصغير ، وأول التصغير مضموم ، وأول الجمع مفتوح . . فالتصغير والجمع بمنزلة واحدة في هذه الأسماء . . وإنما منعهم أن يقولوا : سفيرجل ، أنهم لو كسروه لم يقولوا : سفارجل . . وهذا قول يونس . وأقال الخليل : لو كنت محقرا هذه الأسماء لا أحذف منها شيئا - كما قال بعض النحويين - لقلت : سفيرجل - كما ترى - حتى يصير بزنة دينير . فهذا أقرب وإن لم يكن من كلام العرب » . وقد انتشر رأى يونس هذا ، وكانت له الغلبة في كتب النحو بعد أن ارتضاه سيبويه .

وحكم أحيانا على رأى الخليل بالبعد (١) ، ورأى يونس القسوة . قال مثلا (٢) : « سألت الخليل عن القاضى فى النداء ، فقال : أختار : يا قاضى ، لأنه ليس بمنون كما أختار هذا القاضى . وأما يونس فقال : يا قاض . وقول يونس أقوى ، لأنه لما كان من كلامهم أن يحذفوا فى غير النداء كانوا فى النداء أجذر لأن النداء موضع حذف : يحذفون التنوين ، ويقولون : يا حار ، وصاح ، ويا غلام . . » ويبدو أن سيبويه غفل عن أن حذف الياء من ( قاضى ) كان بسبب التنوين ، فلما يحذف التنوين لا يوجد سبب للحذف .

وتدلنا هذه الأمثلة القليلة من الفيض الفزير فى كتاب سيبويه أن يونس بن حبيب كان شخصية مستقلة ، تأخذ من شيوخها ، فتتفق معهم بقدر وبعد تمنع ، وتختلف معهم حين ترى رأيا غير ما قالوا . فلا تبالى باتفاق ولا اختلاف ، وإذا كان شيوخ يونس أئمة المدرسة البصرية ، كان كل اختلاف بينه وبينهم مبعدا بينه وبين هذه المدرسة ، وخاصة إذا اتفق معاصره الخليل مع الشيوخ . ولكن العامل الأول الذى باعد بينه وبين المدرسة البصرية هو اختلافه مع

(١) ٤٢٩ : ١

(٢) ٢٨٩ : ٢

الخليل . فقد وجد الخليل تلميذا مخلصا معجبا ، دون آراءه ،  
وفسرها ، وعللها ، وناقح عنها ، في كتاب . ولم يجد يونس غير ذلك  
التلميذ يفعل معه الأمر نفسه . ولكن نظرة التلميذ للرجلين لم تكن  
واحدة .

وبالرغم من ذلك لم يعدم يونس من يتقبل بعض هذه الآراء التي  
خالف فيها شيوخه ومعاصريه . فقد جلس بين يديه جماعة من  
أهل الكوفة ، وجدوا فيه — بعد وفاة الخليل — أعظم النجاة ،  
واغترقوا من علمه ، وتقبلوا بعض آرائه وداقوا عنها . واضرب  
مثالا لذلك بآرائه في أعمال حرف الجر المحذوف (١) ، والندبة (٢) ،  
ونون التوكيد الخفيفة (٣) . ولكنني يجب أن أعترف أنهم خالفوه  
في بعض أقواله . فقد أجاز التمييز بغير ، تقول : « لى عشرون غيره »  
ومنع ذلك الفراء (٤) . واشترط البصريون لأعمال ( ما ) عمل ليس  
الا ينتقض النفي بها نحو ما زيد الا قائم . أما يونس فأغفل هذا  
الشرط وأجاز أن تقول : ما زيد الا قائما . ولم يوافق الكوفيون  
كل الموافقة ، ولا خالفوه كل المخالفة ، بل فصلوا الأمر . فذهبوا  
الى أنه اذا كان ما بعد الا منزلا منزلة ما قبلها عملت نحو ما زيد  
الا زهيرا ، أما اذا كان هو الأول نفسه فمنعوا أعمالها مثل ما زيد  
الا أخوك . وأجاز الفراء الأعمال أيضا اذا كان ما بعد الا وصفا نحو  
ما زيد الا إقائما (٥) .

ووجد يونس من النجاة بعد عصره الموقف نفسه ، رفضوا منه  
بعض ما قال ، وقبلوا بعضه . هلق أبو حيان (٦) على البيت :

- 
- (١) الأنصاف ٣٦٣ . الأسموني ٣٠١ .  
(٢) الأنصاف ٣٦٤ . الفراء ١٣٤ . الأسموني ٤٦٥ .  
(٣) الأنصاف ٦٥٠ . الفراء ١٣٣ . الخصائص ١ : ٨٨ ، ٩٢ . الأسموني  
٥٠٣ .  
(٤) أبو حيان : منهج السالك ٢٢٠ .  
(٥) أبو حيان ٦٢ .  
(٦) ٢٦٥ .

أفيقوا بنى حرب وأهواؤنا معا وأرحامنا موصولة لم تقصب

فقال : واختلف النحويون في هذه الفتحة التي في ( معا ) .  
فذهب سيبويه والخليل إلى أنها فتحة أعراب كفتحتها حالة الإضافة  
والكلمة ثنائية اللفظ حالة الأفراد وحالة الإضافة . . وذهب يونس  
والأخفش إلى أنها كفتحة تاء فتى ، وأنه حين أفردت رد اليها  
المحدوكة وهو لام الكلمة فصار مقصورا . وقال المصنف : هو  
الصحيح . يعنى مذهب يونس والأخفش . . والصحيح ما ذهب  
إليه سيبويه والخليل . . »

وارتضى أبو حيان مذهب يونس في العطف على المجرور دون  
إعادة جاره (١) ، وعدم العطف ولكن (٢) ، وبعض المسائل الأخرى (٣) .

ونخلص من دراسة ما بقى من أقوال نحوية أدلى بها يونس  
ابن حبيب أن كثيرا منها نطق به ردا على أسئلة وجهت إليه ، في  
قضية نحوية آونة ، وفي بيت من الشعر أخرى ، وفي آية من القرآن  
ثالثة . وكان يونس في بعض الأحيان هو الذى يطرح القضية  
أو ينشد الشعر لاستطلاع رأى تلاميذه ، ثم يأتى بما عنده .

وعندما نستقصى هذه الأقوال ، ونصنفها ، نكاد لا نجد بابا من  
أبواب النحو ليس للرجل أقوال فيه . وبالرغم من ذلك يلفت النظر  
منا الأبواب الصرفية . فقد كان له فيها جولات أكثر وأبرز من جولاته  
في أبواب النحو . ونضع على رأس الأبواب الصرفية التصغير ،  
والنسب ، والجموع ، ثم صيغ الفعل .

ولذلك اعتمد عليه سيبويه في بعضها اعتمادا تاما ، وأعلن في

(١) البحر المحيط ٢ : ١٤٧ - ٨ .

(٢) البحر المحيط ١ : ٢٢٧ . ارتشاف الضرب ٢٧٢ .

(٣) منهج السالك ١٨٦ .

أحد أبواب التصغير (١) : « وجميع ما ذكرت لك في هذا الباب وما أذكر لك في الباب الذي يليه قول يونس » . فاذا وضعنا الي جانب هذين البابين أبواب النسب التي اعتمد فيها على يونس والخليل تبين لنا قدر ما أخذه سيبويه من شيخه .

ويلفت النظر في النحو أبواب النداء التي اعتمد عليه سيبويه فيها وعلى الخليل اعتمادا كبيرا ، وأبواب الممنوع من الصرف ، والاستثناء ، والضمائر ، والنعت .

ولم يكن كل ما تفوه به من أقوال من ابتكاره ، بل كثيرا ما روى عن شيوخه ، وأكثر الرواية عن أبي عمرو منهم . ولم يبلغ شخصيته أمام أقوالهم ، بل الواضح أن كل ما رواه عنهم ولم يعقب عليه كان موافقا عليه . أما ما لم يوافق عليه فلم يقتصر على روايته بل كشف عن رأيه فيه ، حتى لو خالف فيه أكثر من واحد من أساتذته ، بل لو خالفهم وخالف معهم بعض معاصريه .

وأدى به ذلك الى الانفراد بمجموعة من الآراء التي لم يتابعه فيها جمهور البصريين ، أو لم يجد رفيقا فيها غير بعض من جاء بعده منهم كأبي الحسن الأخفش ، أو وجد رفاقا له فيها خارج بلدته ، ساروا معه في بعضها الشوط كله ، وفي بعضها الآخر بعض الشوط . ثم منحته الأجيال التالية واحدا أو أكثر ممن رضوا عن هذا الرأي أو ذاك من آرائه .

وكان طبيعيا من معاصريه ، وخاصة من البصريين ، أن يصفوه بسبب ذلك بأنه « له قياس في النحو ومذاهب ينفرد بها » (٢) .

ونحن عند ما نحاول أن نتبين منهج يونس في دراساته النحوية نجد أنه خاض في الأبواب النحوية : المسموعة عن العرب والفرضية

(١) ٢ : ١٠٩ .

(٢) ابن خلكان ٢ : ٤١٦ . السيرافي ٢٧ . البغية ٢ : ٣٦٥ . ياقوت ٢٠ : ٦٤ .

القنطري ٢ : ٣٦٥ .

التي كان النحاة يتخذون منها تدريباً عقلياً لتطبيق ما يرون من قواعد نحوية . إقال سيبويه عن ذا ، وذى ، وتا ، وآلا ، وآلاء (١) : « فإذا صار اسماً عمل فيه ما عمل بـ ( لا ) لأنك قد حولته إلى تلك الحال كما حولت ( لا ) . وهذا قول يونس والخليل ومن رأينا من العلماء . إلا أنك لا تجرى ( ذا ) اسم مؤنث لأنه مذكر ، إلا في قول عيسى فإنه كان يصرف امرأة سميتها بعمر و . وأما ( ذى ) فبمنزلة ( فى ) ، و ( تا ) بمنزلة ( لا ) . وأما ( آلاء ) فتصرفه اسم رجل وترفعه وتجره وتنصبه وتغيره كما غيرت ( هيهات ) لو سميت رجلاً به . . » .

• وننبين في أقوال يونس . احكاماً في القياس الذى يستنبطه ، واستبانة لأبعاده . قال سيبويه (٢) : « سألت يونس عن قوله : متى تقول انه منطلق . فقال : إذا لم ترد الحكاية وجعلت ( تقول ) مثل ( تظن ) قلت : متى تقول أنك ذاهب . وإن أردت الحكاية قلت : متى تقول أنك ذاهب ، كما انه يجوز لك أن تحكى فتقول : متى تقول : زيد منطلق ، وتقول : قال عمرو : انه منطلق . فان جعلت الهاء عمراً أو غيره فلا تعمل . قال : كما لا تعمل إذا قلت : قال عمرو : هو منطلق . فقال : لم تعمل ها هنا شيئاً ، وإن كانت الهاء هي القائل . كما لا تعمل شيئاً إذا قلت : قال ، وأظهرت هو ، فقال لا تغير الكلام عن حاله قبل أن تكون فيه ( قال ) فيما ذكرناه . . » .

وكان عندما يضع قياساً ما يطرده ويعممه ، نرى ذلك في عدة مواضع . فنحن نقول : أعطيتكم ذلك ، ونسكن الميم ، فإذا اتصل بها ضمير آخر حركناها وقلنا : أعطيتكمه وأعطيتكمها . ولكن يونس طرد القسامة العامة ، وطبقها على الحالة الثانية وقال : أعطيتكمه ، وأعطيتكمها . والأول أكثر وأعرف ، كما يقول سيبويه (٣) .

(١) ٢ : ٤٢ .

(٢) ١ : ٤٧١ .

(٣) ١ : ٣٨٩ .

وطرد قاعدة عدم التقاء الساكنين حتى في الحالات التي أباح  
العرف فيها ذلك . قال سيبويه (١) : « تقول : هذا زيد بنى عمرو ،  
في قول أبي عمرو ويونس ، لأنه لا يلتقي ساكنان . وليس بالكثير  
في الكلام كثرة ( ابن ) في هذا الموضع » .

وطرد في المبنوع من الصرف القاعدة التي تدرج تحتها الكلمات  
الصحيحة على الكلمات المعتلة ، حتى خطأه الخليل . قال  
سيبويه (٢) : « أما يونس فكان ينظر الى كل شيء من هذا اذا كان  
معرفة : كيف حال نظيره من غير المعتل معرفة ، فاذا كان لا ينصرف  
لم يصرف ، يقول : هذه جوارى قد جاء ، ومررت بجوارى قبل .  
وقال الخليل : هذا خطأ ، لو كان من شأنهم أن يقولوا هذا في موضع  
الجر لكانوا خلقاء أن يلزموه الرفع والجر اذ صار عندهم بمنزلة غير  
المعتل في موضع الجر . . » .

وقد أدى به هذا الطرد للقياس الى مخالفة المسموع من العرب  
في عدة مواضع ، وكان من الأسباب التي أفردته بين النحاة . علق  
الرماني على القياس الأخير ليونس فقال (٣) : « قياسه على المعتل  
أولى به ، وهو جوار في الجمع ، لأن الباب كله على ياء في آخر الاسم  
قبلها كسرة فيما لا ينصرف . وذلك يقتضي الحذف والعوض . .  
فلا وجه لمعصيته مع صحة اجرائه على منهاج واحد » .

وبالرغم من ذلك اتفق يونس مع الخليل في كثير من الأحكام  
النحوية ، والعلل ، بل في بعض المبادئ العامة التي كان الرجلان  
يترسمانها في اقواعدهما . قال سيبويه في باب التصغير (٤) :  
« عوض قول يونس والخليل » يريد التعويض عن الحروف المحذوفة  
للتصغير بحرف علة . .

(١) ٢ : ١٤٩ .

(٢) ٢ : ٥٨ . وانظر ٧٣ .

(٣) الرماني ٢١٥ .

(٤) ٢ : ١١٠ .

وكان المتوقع من رجل كيونس يميل الى طرد ما يضع من قواعد ومقاييس أن ينفي ما يخرج عنها ويخطئه . ولكنه لم يكن يفعل ذلك ، وكان يفرع الى الضرورة الشعرية ، فيرى أن الوزن هو الذى اجبر الشاعر على المخالفة .

فالدكتور أحمد أمين على حق حين يقول (١) : « فهم يقولون : ان ابن أبى اسحاق الحضرمي وتلميذه عيسى بن عمر كانا أشد ميلا للقياس ، وكانا لا يأبهان بالشواذ ، وكانا لا يتحرجان من تخطئة العرب . وكان أبو عمرو وتلميذه يونس بن حبيب البصريان أيضا على عكسهما : يعظمان قول العرب ، ويتحرجان من تخطئتهم » .

ويؤدى بنا هذا الى تصديق قول القدماء حين يقولون (٢) : « كان النحو أغلب عليه » ، والى أن من وصفه فقال (٣) : « بارع في النحو » قد منحه بعض حقه ، ومن ناظر بينه وبين أبى زيد الأنصارى (٤) فقال : « كان يونس أعلم من أبى زيد بالنحو » قد قصر به .

فأقرب الأقوال الى ايفاء الرجل حقه ما قاله ياقوت (٥) : « امام نحاة البصرة في عصره ، ومرجع الأدباء والنحويين في المشكلات » . فقد كان فى الشطر الأول من حياته ثانى اثنين فى البصرة ، لا يذكر نحوى معهما ، ولا يؤخذ النحو عن غيرهما : يتفقان ، ويختلفان ، فتصحب الحجة الخليل أكثر مما تصحب يونس . ولكنها لا تتخلى كل التخلي عن الأخير ، ولا تتركه يتردى فى

---

(١) ضحى الاسلام ٢ : ٢٩٦ . وانظر السيرافى ٢٢ . والزبيدى ٢٨ . والأزهري ٤٠ .

(٢) أبو الطيب ٢١ . الزبيدى ٤٨ . سمط اللالى ١٦٥ . المرمر ٢ : ٣٩٩ . القفطى ٢ : ٣٦٣ .

(٣) السيرافى ٢٧ . البغية ٢ : ٣٦٥ . القفطى ٢ : ٣٦٥ .

(٤) السيرافى ٤١ .

(٥) معجم الادباء ٢٠ : ٦٤ .

الحضيض . فما اخذ عليه كان ثمرة معرفته الواسعة باللغات والنوادر : الفصيح منها والضعيف ، وثمرة قياس على شيء لم يفتن الى أنه لا يتمتع بكل صفات ما يقاس عليه ، وثمرة تعميم في مواضع لا يليق بها الا التخصيص . ولكن الرجل بقي علما مشرقا في بلده ، وازداد سطوعا بعد وفاة زميله ، ثم انتقل عليه الى الكوفة فكان واحدا من الينابيع الثرة التي اغترف منها أهلها . وبقيت أقواله أو أكثرها بين يدي العلماء يعودون اليها ، ويعيدون النظر فيها ، فيتفقون مع معاصريه آنا ، ويخالفونهم أخرى ، ويرون فيها الحق المغيبون .

## محتويات الكتاب

| صفحة |                                   |
|------|-----------------------------------|
| ٣    | مقدمة                             |
| ٥    | الباب الأول : الرجل               |
| ٦    | الفصل الأول : حياته               |
| ٢٠   | الفصل الثاني : طالب العلم         |
| ٣٣   | الفصل الثالث : باذل العلم         |
| ٤١   | الباب الثاني : المؤلف             |
| ٤٤   | الفصل الأول : الكتب المعروفة      |
| ٦٢   | الفصل الثاني : الكتب غير المعروفة |
| ٦٥   | الباب الثالث : الدارس             |
| ٦٨   | الفصل الأول : الدراسات الأدبية    |
| ١١٨  | الفصل الثاني : الدراسات اللغوية   |



## صدر من سلسلة أعلام العرب

| اسم الكتاب                      | المؤلف                    |
|---------------------------------|---------------------------|
| ١ - محمد عبده ... ..            | عباس العقاد               |
| ٢ - المعتمد بن عباد ... ..      | علي أدهم                  |
| ٣ - جابر بن حيان ... ..         | د . زكي نجيب محمود        |
| ٤ - عبد الرحمن بن خلدون ... ..  | د . علي عبد الواحد وافي   |
| ٥ - ابن تيمية ... ..            | د . محمد يوسف موسى        |
| ٦ - معاوية ... ..               | ابراهيم الأبياري          |
| ٧ - سيد درويش ... ..            | د . محمود أحمد الحفنى     |
| ٨ - عبد القاهر للجرجاني ... ..  | د . أحمد بدوي             |
| ٩ - عبد الله النديم ... ..      | د . علي الحديدي           |
| ١٠ - عبد الملك بن مروان ... ..  | د . ضياء الدين الريس      |
| ١١ - مالك ... ..                | امين الخولى               |
| ١٢ - القلقشندي ... ..           | د . عبد اللطيف حمزة       |
| ١٣ - الطبرى ... ..              | د . أحمد محمد الحوقى      |
| ١٤ - الظاهر بيبرس ... ..        | د . سعيد عبد الفتاح عاشور |
| ١٥ - ابن الفارض ... ..          | د . محمد مصطفى حلمي       |
| ١٦ - المختار الثقفي ... ..      | د . علي حسنى الخربوطلى    |
| ١٧ - الوليد بن عبد الملك ... .. | د . سيدة اسماعيل الكاشف   |
| ١٨ - الأسممى ... ..             | د . أحمد كمال زكى         |
| ١٩ - زكريا أحمد ... ..          | صبرى أبو المجد            |
| ٢٠ - قاسم أمين ... ..           | د . ماهر حسن فهمي         |
| ٢١ - شكيب أرسلان ... ..         | أحمد الشرباصى             |
| ٢٢ - ابن قتيبة ... ..           | د . عبد الحميد سند الجندي |
| ٢٣ - أبو هريرة ... ..           | محمد عجاج الخطيب          |

| المؤلف                    | اسم الكتاب                        |
|---------------------------|-----------------------------------|
| د . جمال الدين الرمادى    | ٢٤ - سيد العزيز البشرى ...        |
| محمد جابر الحينى          | ٢٥ - الخنساء ...                  |
| د . أحمد قزاد الاموانى    | ٢٦ - الكندى ...                   |
| د . بدوى طبانه            | ٢٧ - صاحب بن عباد ...             |
| د . محمد عبد العزيز مرزوق | ٢٨ - الناصر بن قلاوون ...         |
| انور الجندى               | ٢٩ - أحمد زكى ...                 |
| د . سيد حنفى حسنين        | ٣٠ - حسان بن ثابت ...             |
| مقيد : محمد فرج           | ٣١ - المثنى بن حارثة الشيبانى ... |
| عبد القادر أحمد           | ٣٢ - مظفر الدين كوكبورى ...       |
| د . ابراهيم أحمد العدوى   | ٣٣ - رشيد رضا ...                 |
| د . محمود أحمد الحفنى     | ٣٤ - اسحاق الموصلى ...            |
| د . زكريا ابراهيم         | ٣٥ - أبو حيان التوحيدى ...        |
| د . أحمد كمال زكى         | ٣٦ - ابن المعتز العباسى ...       |
| د . ماهر حسن فهمى         | ٣٧ - الزهاوى ...                  |
| د . عائشة عبد الرحمن      | ٣٨ - أبو العلاء المعرى ...        |
| د . حسين فوزى النجار      | ٣٩ - أحمد لطفى السيد ...          |
| د . فوقيه حسين            | ٤٠ - الجوينى امام الحرمين ...     |
| د . سعيد عبد الفتاح هاشور | ٤١ - صلاح الدين الايوبى ...       |
| محمد عبد الفنى حسن        | ٤٢ - عبد الله فكرى ...            |
| د . على حسنى الخربوطلى    | ٤٣ - عبد الله بن الربيع ...       |
| انور الجندى               | ٤٤ - سيد العزيز جاويش ...         |
| عبد الرؤوف مخلوف          | ٤٥ - ابن رشيد القسروانى ...       |
| محمود خالد الهجرسى        | ٤٦ - محمد بن عبد الملك الريات ... |
| محمود فنيهم               | ٤٧ - حنفى ناصف ...                |
| د . سيدة اسماعيل الكاشف   | ٤٨ - أحمد بن طولون ...            |
| أحمد سعيد الدمرداش        | ٤٩ - محمود حمدي الفلكى ...        |
| محمد عبد الفنى حسن        | ٥٠ - أحمد فارس الشدياقى ...       |
| د . على حسنى الخربوطلى    | ٥١ - المهدي العباسى ...           |
| د . محمود رزق سليم        | ٥٢ - الاشرف قانصوه الغورى ...     |

| المؤلف                      | اسم الكتاب                       |
|-----------------------------|----------------------------------|
| د . حسين فوزى النجار        | ٥٢ - رفاعة الطهطاوى ... ..       |
| د . محمود احمد الحفنى       | ٥٤ - زرياب ... ..                |
| د . حسن احمد محمود          | ٥٥ - الكندى « المؤرخ » ... ..    |
| د . زكريا ابراهيم           | ٥٦ - ابن حزم الاندلسى ... ..     |
| د . بول غليونجى             | ٥٧ - ابن النفيس ... ..           |
| د . سعيد عبد الفتاح عاشور   | ٥٨ - السيد احمد البدوى ... ..    |
| د . محمد مصطفى هدارة        | ٥٩ - المسامون ... ..             |
| محمد عبد الفنى حسن          | ٦٠ - المقبرى ... ..              |
| عبد الرحمن الرافعى          | ٦١ - جمال الدين الافسانى ... ..  |
| د . احمد كمال زكى           | ٦٢ - الجاحظ ... ..               |
| د . انور عبد العليم         | ٦٣ - ابن ماجه ... ..             |
| د . ماهر حسن فهمى           | ٦٤ - محمد توفيق البكرى ... ..    |
| د . على محمد الحديدى        | ٦٥ - محمود سامى البارودى ... ..  |
| على عبد العظيم              | ٦٦ - ابن زيدون ... ..            |
| د . عبد العزيز محمد الشناوى | ٦٧ - عمر مكرم ... ..             |
| د . ابراهيم احمد المدوى     | ٦٨ - موسى بن نصير ... ..         |
| د . عبد الحليم محمود        | ٦٩ - ابو الحسن الشاذلى ... ..    |
| د . سيدة اسماعيل كاشف       | ٧٠ - عبد العزيز بن مروان ... ..  |
| د . حسين فوزى النجار        | ٧١ - على مبارك ... ..            |
| د . عبد الحليم محمود        | ٧٢ - ابو الحسن الشاذلى ... ..    |
| د . على حسنى الخربوطلى      | ٧٣ - العزيز بالله الفاطمى ... .. |
| د . جمال الدين الشيال       | ٧٤ - ابو بكر الطرطوشى ... ..     |
| د . حسين نصار               | ٧٥ - يونس بن حبيب ... ..         |



